رسائل الانتقاد

(في نقد الشعر والشعراء)

تأليف

ابن شرف القيرواني

المتوفى سنة ٤٦٠ هـ

تحقيق

المغفور له العلامة

حسن حسني عبد الوهاب

دار الكتاب الجديد

بيروت • لبنان

١٠١٢

رسائل الانتقاد

ابن شرف القيرواني

رسائل الانتقاد

(في نقد الشعر والشعراء)

تأليف

ابن شرف القيرواني

المتوفى سنة ٤٦٠ هـ

تحقيق

المغفور له العلامة

حسن حسني عبد الوهاب

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

الطبعة الأولى

دار الكتاب الجديد

١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

للأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد

كان صديقنا العلاّمة الجليل المغفور له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب كتب إلينا قُبَيْل وفاته، طالباً إعادة طبع «رسائل الانتقاد» لابن شرف القيرواني. وقد حالت الفتن التي وقعت في بيروت دون تنفيذ رغبته. فرأينا اليوم، بعد أن عاد إلى بيروت أمنُها واطمئنانها، أن نُخرج هذه الطبعة من الرسالة، وفاءً له، واعترافاً بفضله، وتخليداً لذكراه.

كان علاّمتنا قد نشر هذه الرسالة، أول مرّة، في مجلة «المقتبس» الدمشقية، التي كان يُصْدِرُها استاذنا الجليل محمد كرد علي. وكانت يومئذ أعظم مجلة في العالم العربي تُعنى بالتراث العربي القديم. فظهرت مُنَجّمة في المجلد السادس عام ١٩١١م/ ١٣٢٩هـ، في الأجزآء: الخامس والسابع والثامن. ثم لما جمع الاستاذ كرد علي «رسائل البلغاء». اختار هذه الرسالة وضمّها إلى كتابه.

والحاجة اليوم شديدة إلى ما كتبه ابن شَرَف ونقد فيه الشعراء الأقدمين، بأصالة في الرأي، وسداد في النقد، وصحّة في التوجيه. وخاصّة أن مجلة المقتبس أنْدَر من الكبريت الأحمر، ورسائل البلغاء نفِدَت طبعاتُها، ولا سبيل للباحثين للرجوع إلى هذه أو تلك إلا بصعوبة.

لقد نشر الاستاذ عبد الوهاب هذه الرسالة عام ١٩١١م. وكان في السابعة والعشرين من عمره. (فقد وُلد سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م). ومما يدعو إلى

الاعجاب والتقدير ، أنّه في تحقيقاته وتعليقاته يومئذ ، ورغم صغر سِنّه خير من كثير من المحققين اليوم.

وقد حافظنا على نص الرسالة كما نُشرت في رسائل البلغاء (الطبعة الثانية ، القاهرة) وصححنا الأخطاء المطبعية ، وضبطنا بعض الألفاظ ، وأردفنا النص ، وآخر للاعلام ، بفهرس لموضوعات الرسالة . تيسيراً للباحث في الرجوع إليها .

رحم الله صديقنا الجليل ، وأجزل ثوابه .

بيروت ١٩٨٣ — صلاح الدين المنجد

المقــدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عثرتُ على كتاب صغير الحجم، جميل الخط عتيقه، فتأملتُه فوجدته لمؤلف تونسي معدود من البلغاء. ولما أخذتُ أتلو رشيق معانيه، وجدت نقصاً فادحاً بين أوراقه، أفسد عقد جُمله، وبعد مدة وقعتُ في فهرست القسم العربي من مكتبة الأسكوريال بجزيرة الأندلس، على اسم مقامة تحت رقم ٣٥٦ منسوبة إلى أبي عبدالله محمد بن شرف القيرواني، فبادرتُ في الحال لطلب نسخة منها وطابقتها بما لدي، فكانت القطعة الأندلسية مطابقة للقسم الأول من النسخة التونسية بزيادة ما نقص. فأسرعت حينئذ إلى النسخ، وأتممت هاته بتلك حتى كملت.

ومن المناسب أن نذكر شيئاً عن الأصلين اللذيْن أخذنا عنهما. فالأول، وهي النسخة التونسية، تشتمل على ستين صفحة شرقية يلوح من شكل خطها أنها من القرن السابع، لكنها صعبة القراءة، لانطماس الأحرف ودُثور كتابتها، دَعْ ما لحق الورق من العبث الذي أهلك جانباً وافراً منها.

أما القطعة الأندلسية التي أكملنا بها ما ضاع من التأليف، فهي تحتوي على ثماني عشرة صفحة، صغيرة الحجم أندلسية الخط قديمة النسخ، كما يتبين ذلك من التاريخ الذي وضعه بعض المطالعين في الصفحة الأخيرة حيث قال: «طالعته في موفى سنة خمس وخمسمائة». وبهذا يستدل على أن هاته القطعة كتبت زمن المؤلف مدة إقامته بالأندلس إلا أنها أخصر ولا تشتمل إلا على المقامة الأولى.

ويلوح لي أنّ مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة (كتاب العمدة) الذي وضعه زميله ومعاصره الحسن بن رشيق القيرواني كما سنبيّنه في ترجمته.

إلا أن الرسائل المعارَضَ بها كانت أطولَ وأكثر مما وجدناه وأوردناه هنا. يؤيّد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدّمته للمجلس الأول حيث قال: «فأقمتُ من هذا النحو عشرين حديثاً». فالمظنون أنه يقصد بالحديث مجالسه مع الأستاذ الموهوم الذي سماه (أبا الريّان) كما اختلق الحريري في مقاماته شخص الحارث بن هَمّام، واخترع الهمذاني عيسى بن هشام. فعسى أن يساعدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس إن كان في عالم الموجودات.

وقد احترمتُ في الاستنساخ الطريقة التي أتى عليها الأصل في الرسم وضبطه، إلا ما نبّهتُ عليه أسفل المتن مع التعاليق.

ولما كان الاعتراف بالمعروف فريضة وجب عليَّ أن أرفع شكري الخالص للكاتب البليغ والباحث المدقق محمد بدر الدين أفندي النعساني[1] الذي أعانني على إزالة بعض مشكلات النسخة التونسية. كما أقدم عبارات ودادي إلى العالم المستعرب الحجة صديقي الاستاذ كارلو نالينو الذي أسعفني بالحصول على صور القطعة الأندلسية، وهو لا يزال يفيدني بإشاراته العلمية وفكره الصائب، فَجُزِيا عني خير جزآء، والله وليّ توفيقي، به أهتدي وإليه أُنيب؟

تونس

حسن حسني عبدالوهاب

---

(١) محمد بن مصطفى النعساني، بدر الدين. من كبار علماء الشام. كان واسع العلم، محيطاً بالتراث القديم. اديباً، كاتباً، شاعراً. حقق ونشر الكثير من النصوص القديمة توفي بحلب سنة ١٩٤٣م /١٣٦٢هـ. (المنجد).

ترجمة المؤلف[1]

نبغ أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجُذامي القيرواني نحو سنة ٣٩٠هـ، من إحدى البيوتات الشريفة القادمة مع الجيش العربيّ الفاتح، والقيروان إذ ذاك زاهية زاهرة بالعلوم، رافلة بالمعارف والفنون. فروى المعقول والمنقول عن أفاضل ذلك العصر، كأبي الحسن القابسي، وأخذ الفنون الأدبية من أساتذتها، كأبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني، ومحمد بن جعفر القزّاز، وغيرهما، حتى برع فيها وأجاد، فألحقه حينئذ المعزّ بن باديس الصنهاجي أمير أفريقية بديوان حاشيته، لما رأى فيه من الذكاء والنجابة. وهناك التقى ابن شرف بجماعة من الكتّاب البلغاء، والشعراء الظرفاء، الذين كان يجمعهم ديوان الملك، مثل عليّ بن أبي الرجال الكاتب، رئيس قلم الإنشاء، وأبي علي الحسن بن رشيق صاحب «العُمْدة»، ومحمد بن حبيب القلانسي وغيرهم.

وطبيعي أنّ وجود ابن شَرَف في مثل هذا الوسط دعاه إلى تتبّع الوجهة التي شبّ عليها وقوى نشاطه، إذ كان أولئك الأدباء الأجلاّء يتسابقون في التقرّب بنظمهم ونثرهم إلى الأمير، رغبةً في العطايا الهائلة والهبات الطائلة. وحصل عن هذا التنافس والتزاحم حركةٌ فكرية أدبية لم تر إفريقية مثلها في عصرٍ من عصور السلطنة الإسلامية، وصارت القيروان كعبةَ العلم التي يحجّ إليها العلماء من جميع أصقاع المغرب حتى من الأندلس. وقد خصص المعزّ لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق، فكان يلتفت تارة إلى الأول وأخرى إلى الثاني. وجرى بسبب ذلك بين هذين

(١) اقتبسنا هذه الترجمة بتصرف من تأليفنا «الأدب والأدباء التونسين».

الأديبين مناقضات ومُهاجاة رسمها كلٌّ منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل إلينا منها شيءٌ فيما نعلم.

حكى ابن شرف المترجَم له في كتابه «أبكار الأفكار» قال: استدعاني المعزّ بن باديس يوماً واستدعى أبا عليّ الحسنَ بن رشيق الأزدي، وكنا شاعرَيْ حضرته وملازمَيْ ديوانه فقال: أحبّ أن تصنعا بين يديّ قطعتين في صفة الموز على قافية الغين. فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر، فكان الذي صنعتُه:

يا حَبّذا الموزُ وإسعادُه ... من قبل أن يمضغَه الماضغُ
قد لان حتى لا مَجسَّ له ... فالفَمُ ملآن به فارغُ
سِيّانِ قُلنا مأكلٌ طيّبٌ ... فيه وإلاّ مشرَبٌ سائغ

والذي صنعه ابن رشيق:

مَوزٌ سريعٌ أكلُهُ ... من قبل مَضْغ الماضغِ
فمأكلٌ، لآكلٍ ... ومَشربٌ لِسائغِ
فالفمُ من لينٍ به ... ملآنُ مثلُ فارغِ
يَخال وهو بالغ ... للحَلْق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال، فعملنا، ولم يُرِ أحدُنا صاحبَه ما عمل. فكان ما عملته:

هَل لك في موزٍ إذا ... ذُقناه قُلنا حَبّذا
فيه شرابٌ وغِذا ... يُريك كالماء القَذَى
لو مات مَن تلذُّذ ... به لقيل ذَا بِذا

وما عمله ابنُ رشيق:

لله موزٌ لذيذُ ... يُعيذه المُستعيذُ
فواكهٌ وشرابٌ ... به يُداوى الوَقيذُ
ترَى القذَى العينُ فيه ... كما يُريها النّبيذُ

قال ابنُ شرف: فأنت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدةً والقصدُ واحدا. ولقد قال مَن حضر ذلك اليوم: ما نَدري ممّ نعجَب. أمن سُرعة البديهة، أم من غرابة القافية، أم من حسن الاتفاق؟

وحكى المؤلف المترجَم له أيضاً في كتابه المذكور قال: استخلانا المُعز يوماً وقال: أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سُوق بعض النساء، فإني أستحسنه، وقد عاب بعضُ الضرائر بعضاً به وكُلهن قارئات كاتبات، فأحب أن أُربهن هذا وادّعى أنه قديم، لأحتجّ به على مَن عابه وآسِي به مَن عِيب عليه. فانفرد كل منّا وصنع في الوقت فكان الذي قلت:

وبِلقيسيّــــة زِينــت بشَعر	يَسيرٍ مثلِ ما يَهب الشحيحُ
رقيــقٍ في خَدلّجــة رَدَاحٍ	خفيـفٍ مثل جِسْم فيه رُوح
حَكـى زغبَ الخُدود وكُلُّ خدٍّ	بــه زَغــب فَمْعشوق مَليـح
فـإن يك صَرْح بِلْقيس زُجاجاً	فمِن حَدَق العُيون لها صُروح

وكان الذي قال ابن رشيق:

يَعيبون بِلْقيسيّـة أن رأوا لها	كما قد رَأى من تلك مَن نَصب الصَّرحاً
وقد زادها التَّزغيب ملْحاً كمثل ما	يَزيد خدُودَ الغِيد تزغيبُها ملْحا

فانتقد المُعز على ابن رشيق قولَه يَعيبون وقال: أوجدتَ لخصمها حجة بأنّ بعض الناس عابه. فانظر ما ألطف هذه المُناضلات، وما أحلى هذه الحكايات، ولولا خوف إطالة لزدنا من هذه طُرفاً تروق الخاطر.

واستمر ابنُ شرف على خدمة المُعزّ إلى أن زحف عربُ الصعيد من هلاليّين ورياح وغيرهم واستولوا على غالب القطر التُّونسي بعد ما خرّبوه ودمّروه، واضطر الأمير المعز إلى ترك القيروان أمامَ تلك القبائل المتوحشة (سنة ٤٤٩هـ)وفمرّ إلى المهدية واتخذها دار مُلكه، وقد تبعه إليها شعراؤه وحاشيته. وفي خلاء القيروان يقول ابنُ شرف من قصيدة رنّانة:

بعد خُطوب خَطبتْ مُهجتي وكان وَشْك البين إمهارها
ذا كبدٍ أفلاذُها حولها وقسمت الغربة أعشارها
أطفالُها ما سَمعت بالفَلا قطٌّ فعادتْ في الفلا دارها
ولا رأت أبصارُها شاطئاً ثم جَلت باللّجّ أبصارها
وكانت الأستار آفاقها فعادت الآفاق أستارها
ولم تكُن تعلو سريراً علا إلا إذا وافق مقدارها
ثم علت فوق عُشور الخُطا ترمي به في الأرض أحجارها
ولم تكن تَلحظها مقلة لو كحلت بالشَّمس أشفارها
فأصبحت لا تتّقي لحظة إلا بأن تجمع أطمارها

وأقام ابن شرف مدة بالمَهدية مع زُمرة شعراء الملك، يخدُم الأمير المعز وابنه تميماً إلى أن رحل عنها قاصداً جزيرة صقلية، لما سمع من كرم أميرها، وإليها لحقه رصيفُه ابن رشيق. وقد قدمنا أنه كان وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين جرير والفرزدق، أو بين الخوارزمي وبديع الزمان. فلما اجتمعا بصقلية تسامحا وأقاما بها زمناً، ثم استنهض يوماً ابن شرف رفيقه على جواز الأندلس، فأنشد ابن رشيق البيتين المشهورين بين الخاص والعام:

مما يُزهّدني في أرض أندلسٍ سماعُ مُقتدر فيها ومُعتضدِ
القابُ سَلْطنة مِن غير مَمْلكة كالهِرّ يَحْكي انتفاخاً صولَة الأسد

فأجابه ابن شرف بديهة:

إن تَرْمك الغربةُ في مَعْشر قد جُبل الطبعُ على بُغْضِهِمْ
فدارِهْم ما دمتَ في دارهم وأرْضِهم ما دمت في أرضهم

واجتاز ابنُ شرف وحده الأندلس وسكن المَرية وغيرها وتردّد على ملوك طوائفها، كآل عباد بإشبيلية وغيرهم. وبهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) وخلف ابناً يدعى أبا الفضل جعفراً، كان أديباً مجيداً أيضاً، أورد له العِمادُ في خرِيدته، والفتح في قلائده قصائدَ وفصولاً تشهد له بطول الباع.

أما تآليف محمد بن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون، فمنها كتاب (أبكار الأفكار) جمع فيه ما اختاره من نظمه ونثره، وهو أنفسُ مصنفّاته (مفقود وقد توجد منه شيء في بعض كتب الأدب). ومنها كتاب (أعلام الكلام) به نُخَبٌ ومُلَح، (مفقود أيضاً). ثم (رسائل الانتقاد) والمظنون أنه ألفها بعد هجرته القطر التونسي كما يُستفاد من سياق كلامه في مقدمتها، وغيرها من هذه المصنفات الأدبية النفيسة.

وها نحن نأتي هنا على مُنتخَبات نثر وشعر من كلام محمد بن شرف ليرى القارىء براعة هذا المؤلف الجليل ومكانته من الأدب.

فمن نظمه في الشوق إلى بلاده القيروان مدة إقامته بالأندلس.

يا قَيروان وَدِدْتُ أنّي طائرٌ ... فأراكِ رُؤية باحث متأمّلِ
يا لَوْ شهدتُك إذْ رأيتُك في الكَرى ... كيف ارتجاع صِباي بعد تكهّلِ
وإذا تجدّد لي أخٌ ومُنادم ... جدّدتُ ذِكرَ أخٍ خليلٍ أوّلِ
لا كثرة الأحسانِ تُنسي حَسْرتي ... هَيْهات تَذهبُ عِلّتي بِتعلّلِ
لو كنتُ أعلم أنَّ آخرَ عَهْدِهم ... يومَ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ

وله في شكوى الزمان:

إنّي وإنْ عزّني نَيلُ المُنى لأرى ... حرصَ الفتى خلّة زِيدت على العدمِ
تقلّدتني الليالي وهي مُدبرةٌ ... كأنّني صارمٌ في كفّ مُنهزمِ

وأنشد في المعنى:

عِتاباً عسى أنّ الزمانَ له عُتْبى ... وشَكوى فكم شَكْوى ألانَتْ له القَلْبا
إذا لم يكن إلاّ إلى الدّمع راحةٌ ... فلا زال دمْعُ العَين مُنْهملاً سَكْبا

وقال أيضاً:

وما بُلوغُ الأماني في مَواعدها ... إلا كأشعبَ يَرْجو وَعْدَ عُرقوبِ
وقد تخالفَ مكتوبُ القضاء به ... فكيف لي بقضاءٍ غيرِ مكتوبِ

ومن شعره في الحِكَم قوله:

أحذَرْ محاسنَ أوْجُهٍ فَقدت مَحَا ... سنَ أنْفسٍ ولو أنّهــا أقمارُ
سُرُجٌ تلوحُ إذا نظرتَ فإنها ... نُورٌ يضيءُ وإنْ مَسَسْتَ فنَار

وقوله:

لا تسألِ الناسَ والأيامَ عن خبرٍ ... هُما يَبُثّانــك الأخبارَ تَطْفيلاَ
ولا تُعاتِبْ على نَقْص الطباعِ أخاً ... فـإنَّ بدرَ السما لم يُعْطَ تَكميلا
لا يُؤيسنّــك من أمرٍ تَصَعُّبه ... فالله قد يُعقِبُ التّصْعيب تَسْهيلا
بِع مَن جَفاك ولا تَبخلْ بسلْعته ... واطْلُبْ به بَدَلاً إنْ رام تَبديلا
وصَيّرِ الأرضَ داراً والورى رَجلاً ... حتى تَرَى مُقبلاً في الناس مَقبولا

وله:

إذا صحـب الفـتى سَعْدٌ وجدٌّ ... تحامتْهُ المَكارهُ والخُطوبُ
ووافــاه الحبيــبُ بغير وَعْدٍ ... طُفيليّـا ونــاد لــه الرَّقيــبُ

وله أيضاً:

يــــا ثاويــــاً في مَعشرٍ ... قد آصطلى بنارِهْم
إنْ تَبْـك مِن شَرارهــــم ... على يَدَيْ شِرَارهم
أو تُرْمَ مِنْ أحجارهم ... وأنت في أحْجارهــــم
فما بقيــــــتَ جارَهُم ... ففي هواهُم جارِهم
وأرْضِهِم في أرْضِهِم ... ودَارِهِمْ في دَارِهِمْ

ومن كلامه في التغزل قوله في ليلة أنس:

ولقـد نعمتُ بليلةٍ جَمُد الْحَيا ... بـالأرض فيها والسماءُ تَـذُوبُ
جَمَع العشاءين المُصَلَّى وانزَوَى ... فيهـا الرقيـبُ كأنـه مَرْقوب
والكأسُ كاسيةُ القميص كأنها ... لونـاً وقَـدْراً مِعْصمٌ مَخْضوبُ
هي وَرْدَة في خَـدّه وبكأْسها ... تحت القَنـاني عسجـدٌ مَصْبُوبُ
مِنّي إليـه ومِنْ يَدَيْهِ إلى يدي ... فالشمسُ تَطْلـع بيننـا وتَغيبُ

وقوله أيضاً:

قامتْ تَجُر ذُيولَ العَصْب والحِبَرَ ... ضُعيفةُ الخَطْوِ والميثاقِ والنَّظرِ
تَخْطو فتُولي الحصا مِنْ حَلْيها نبذاً ... وتَخْلط العَنبرَ الوَرْدِيّ بالعَفرِ
تلقّتتْ عن طلا وَسْنان، وابتسمتْ ... عن واضحٍ مثلِ نُورِ الروضةِ العَطِرِ
ما لَذّ للعين يومٌ بعد ما ذكرتْ ... ليلاً سَمَرناه بين الضالِ والسَّمر
تساقط الطلُّ مِنْ فوق النُّحُور به ... تساقُطَ الدّرِ في اللَّبّات والثَّغر

وله من خمرية سمية:

خليلَ النفسِ لا تُخلي الزجاجَا ... إذا بحرُ الدُّجى في الجوِّ ماجا
وجاهِرَ في الُمدامـة من يُرائي ... فما فوق البَسيطة من يُدَاجَى
أمِطْ عنك الكَرىٰ والليلُ ساجٍ ... ودَعنـا نَلْبَسُ الظلماءَ ساجـا
وهـاتِ على آهتمام الرُّوح راحاً ... يَعُدْ هَمُّ النفوسِ لهـا افتراجا
إذا مِزّجْنهـا آتّقَـدَ آحمراراً ... صَبَبْنـا الُمشتري فيها مِزَاجا

وله:

بكيتُ دماً والقاصرات سوافِرٌ ... فلاحـتْ خـدودٌ كلهن مُوَرَّدُ
وقد وَقف الواشون في كلّ وَجْنة ... على مَحْضرٍ فيه الَمدامعُ تَشهدُ

وله:

يقول لي العـاذلُ في لَوْمـه ... وقولـهُ زُورٌ وبُهتـانُ
مـا وجْهُ مَنْ أحببته قِبْلة ... قلـتُ ولا قولُـك قرآن

وقال:

قل للعَذولِ لو آطلعتَ على الذي ... عاينتـهُ أعنـاك مـا يعُنيـني
أتصـدّني أم للغرام تردّني ... وتلومـني في الحب أم تُغريني
دَعـني فلستُ مُعاقَباً بجنايتي ... إذ ليس دينك لي ولا لك دِيني

وقال فيمن اسمه عمر:

يا أعدلَ الناس آسماً كم تجورُ على فؤادِ مُضناكَ بالهجْرانِ والبَيْنِ
أظنّهم سَرقوك القافَ من قَمر فأبدلوها بعَينٍ خِيفَةَ العَيْنِ

وله أيضاً:

غيري جَنى وأنا المُعاقَبُ فيكمُ فكأنّني سَبّابةُ المُتندّم

وقال يمدح أستاذه الكاتب أبا الحسن عليّ بن أبي الرجال:

جاوِرْ عليًّا ولا تَحْفل بحادثةٍ إذا ادّرعتَ فلا تَسأل عن الأَسلِ
اسمٌ حكاه المُسمّى في الفِعال فقد حاز العليّيْن من قَوْل ومن عَمل
فالماجدُ السيِّدُ الحُرّ الكريم له كالنّعت والعَطف والتوكيد والبَدلِ
زان العُلا وسِواه شانَها وكذا تميّز الشمسُ في الميزان والحَملِ
وربما عابه ما يَفْخرون به يَشْنا من الخَصْر ما يَهوى من الكَفل
سَلْ عنه وآنطق به وانظُر إليه تَجدْ مِلءَ المَسامع والأفواهِ والمُقَلِ

ومن نظمه في أنواع شتى:

قال في العود:

سقى الله أرضاً أنبتتْ عُودك الذي زكتْ منه أغصانٌ وطابتْ مغارسُ
تَغنّى عليها الطيرُ والعودُ أخضرٌ وغَنّت عليه الغِيد والعودُ يابسُ

وقال في الدرهم والدينار:

ألا رُبّ شيءٍ فيه من أحرف آسمِه نواه لنا عنه وزَجْر وإنذارِ
فُتِنّا بدينارٍ وَهِمنا بِدرْهم وآخر ذا همّ وآخر ذا نارِ

وقال من قصيدة في وصف سيف:

إن قلت ناراً أتَندى النارُ مُلهبةً أو قلت ماءً أيَرمي الماءُ بالشّرَرِ

وله من أخرى:

وقد وَخطتْ رماحهم مَفْرق الدُّجى فبان بأطرافِ الأسنة شائباً

ومن نثره ما كتبه مستعطفا على محبوس في دين:

قد حكَمتَ بِسجْن الأشباح، وهي سُجون الأرواح، فامنُنْ على ما شئت منها بالسراح، فالحبس نزاعُ الأرواح؛ والعقلة أُخت القتلة، وكلاهما فَقْد، ومهرٌ للخطوب ونَقْد؛ وإنما بينهما نَفَسٌ مُتصاعد، وأجَلٌ مُتباعد؛ فألحقْ منهما ما أجَّلت بما عَجَّلت، وقد أخرّنا الديْن، إلى يوم الدين.

ومن منثور كَلامه في (أبكار الأفكار):

لما فنى عمر الأمس، وطفىءسراجُ الشمس؛ لاحت بُروق الثغورِ اللوامع، وجَلجلت وعودُ الأوتارِ في المسامع، وبُعث مُخارقٌ وابنُ جامع؛ فلم يزل ذلك دأبُنا، ما أقلع سحابنا؛ حتى مَسأنا هجعه، وكلنا نقول بالرجعة.

وله في القرابة:

الوجيه بين أقاربه، كالوادي بين مَذانبه؛ تجذبنّ ماءه، وتطلبّن ظماءه.

وفي العدَاوَة:

كم قاطَعك من راضَعك، وقابَحك من مالَحك، ونافَقك من وَافَقك، وناصبَك من صاحبَك، وحادّك من وادّك.

في أنواع شتى:

الجود أنصرُ من الجنود. مَن لخل بماله، سَمح بعرض آله. الباذلُ كثيرُ العاذل. الكريمُ كثير الغَريم. إحذَر الكريم إذا افتقر، واللئيمَ إذا اقتدر. إحذَر التقيّ إذا أنكر، والذكيّ إذا فكّر. المَطْلُ أحد المَنعَيْن، واليأس أحدُ الصُنْعَيْن. العِشق أحد الرِّقّين، والسلوّ أحد العِتْقَيْن. رَفَثُ الكلام أحد السِّفاحَيْن، ومُوالاة القُبل أحد النِّكاحين. جميلُ الردّ أحدُ الجَودَيْن، وبقاءُ الذكر أحدُ الخُلودَيْن. طولُ الجُمود أحد القَبرين، وبقاءُ الثناء أحدُ العُمرين. بئس النصيرُ التَّقصير. المُحاسر خاسر. مَنْ كَثر فُجْرُه، وَجب هَجْرُه. من كرُمتْ خِصاله، وَجب وِصالُه. سحابةُ صيف، وزيارة طَيف. الوسيلة جَناح النّجاح. رُبّ عَيْنٍ إذا رأت زَنت. لا كَرَم بمن حرم. المُستلم أحزم من المُتسلِّم.

هذا ما قصدنا إيرادَه هنا، على أن ما جمعناه من كلام هذا الأديب البارع هو أطولُ من ذلك، وقد لاقينا صُعوبات جمة في نظم ما تشتت، إذ لا يوجد تأليف يحوي تراجم فضلاء القطر التونسي، والله المسئول الإعانة.

ح.ح.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعن برحمتك

قال أبو عبدالله محمدُ بنُ شَرَف القيرواني: هذه أحاديثُ صنعتُها مختلفة الأنواع، مُؤتلفة في الأسماع؛ عربيّات المَواسِم، غَريبات التراجم، وآختلفتُ فيها أخباراً فصَيحاتِ الكلام، بديعاتِ النظام؛ لها مَقاصدُ ظِراف، وأسانيد طِرَاف؛ يَروق الصغيرَ معناها، والكبيرَ مَغْزاها. وعزوْتُها إلى أبي الرِّيان الصَّلْت بن السَّكْن، من سَلامان(١)، وكان شيخاً هِمّا في اللسان، وبدراً تِمّاً في البَيان؛ قد بقي أحقابا، ولقي أعقابا؛ ثم ألقتْه إلينا من باديته الأزمات، وأوردته علينا المعجزات، فمَتَحْنا من علمه بحراً جارياً، وقدحنا من فَهمه زَنْداً واريا؛ وأدرنا مِن برّه طَرَفا، وآجتنينا من ثمره

(١) سلامان (بفتح أوله): ماء لبني شيبان على طريق مكة الى العراق، وبه مات نوفل بن عبدمناف. قال حاتم:

إذا حال دوني من سلامان رملة   وجدت توالي الوصل عندي أبترا

(من معجم ما استعجم لأبي عبدالله البكري ج ٣ ص ٧٧٦ طبعة غونتغن سنة ١٨٧٦). وفيما يظهر لنا أن ابن شرف اختار سلامان، الذي هو اسم منزل لبني شيبان، تذكاراً للقبيلة التي يُنسبُ إليها أحد أساتذته ومحسنيه، أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني رئيس قلم الإنشاء في دولة المعز بن باديس الصنهاجي، كما ذكرنا في مقدمة المؤلف.

طُرَفا؛ ونحن إذ ذاك والشبابُ مُقْتَبل، وغفلةُ الزمان تَهْتَبل؛ واحتذيتُ فيما ذهبتُ إليه، ووقع تعرِيضي عليه؛ مِن بث هذه الأحاديث ما رأيتُ الأوائل قد وضعتْه في كتاب كليلة ودمنة، فأضافوا حِكَمه إلى الطير الحوائم، ونَطقوا به على ألسنة الوَحش والبهائم، لتتعلق به شهواتُ الأحداث، وتُستعذب بسَمره ألفاظُ الحدّاث. وقد نحا بذا النحو سهل بن هارون⁽¹⁾ الكاتب في تأليفه كتاب «النمر والثعلب». وهو مشهور الحكايات، بديع المراسلات، مليح المكاتبات. وزوّرَ أيضاً بديعُ الزمان الحافظ الهمذاني، وهو الأستاذ أبو الفضل أحمد بن الحُسين⁽²⁾ مقاماتٍ كان يُنشئها بديهاً في أواخر

---

(1) أبو عمر سهل بن هارون بن راهبون الدستميساني، أصله فارسي وانتقل الى البصرة واتصل بخدمة المأمون فتولى رياسة خزانة الحكمة ببغداد. وكان حكيما فصيحاً شاعراً،شعوبي المذهب شديد التعصب على العرب، وله مصنفات كثيرة تدل على بلاغته وحكمته، منها: كتاب (ثعلة وعفرة) وكتاب (نصمة وعصرة) عارض بها كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وأمثاله وزاد عليه بحسن النظم. أما كتاب (النمر والثعلب) الذي نسبه اليه ابن شرف هنا فلم نقف على ذكره في تآليفه. [قال المنجد: حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ عبدالقادر المهيري التونسي. وصدر بتونس عام ١٩٧٣].

(2) بديع الزمان، توفي (سنة ٣٩٨). ومقاماته تبلغ أربعمائة، كما ذكره إبراهيم الحصري القيرواني في كتابه (زهر الآداب) حيث قال: «إن الذي سبب للبديع تأليف مقاماته هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثاً ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره وأنتجها من ينابيع فكره. على طبع العرب الجاهلية، بألفاظ بعيدة وحشية، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة...» إلا أن المتداول بين الناس خمسون مقامة فقط، والمظنون أن في في عصر ابن شرف لم يصل إلى إفريقية سوى عشرين منها.

مجالسه ويَنسُبها إلى راوية رواها له يُسميه عيسى بن هشام، وزعم أنه حدّثه بها عن بليغ يُسميه أبا الفتح الإسكندري، وعددها، فيما يزعم رُواتها، عشرون مقامة. إلا أنها لم تصل هذه العدّة إلينا، وهي مُتضمنة معانيَ مختلفة، ومَبنيّة على معاني شتى غير مؤتلفة؛ لينتفعَ بها من الكُتاب المحاضرين مَن صرفها من هَزل إلى جدّ، ومن ندّ إلى ضد.

فأقمت من هذا النحو عشرين حَديثاً، أرجو[1] أن يتبيّن فضْلها، ولا تُقَصِّرُ عما قبلها. ولعمري ما أشكرُ من نفسي، ولا أُثني على شيءٍ من حسِّي، إلا ظَفَري بالأقل مما حاولتُه، على ما أضرمْته نيرانُ الغُربة من قلبي، وثَلَمَتْه صَعقات الفِتنة من لُبِّي؛ وقطعتْ أهوالُ البر والبحر من خَواطري، وأضعفت الوحشةُ من غَرائزي وبصائري. لكنَّ نية القاصد وسَعة المقصود، أعانا ذا الودّ على إتحاف المَودود. والله أسأل توفيقاً، ينهج لنا إلى الرّشد طريقاً.

فمنها:

قال[2] محمد: وجاريتُ أبا الرَّيَّان في الشِّعر والشُّعراء ومَنازلهم في جاهليّتهم وإسلامهم[3]، واستكشفتُه عن مَذهبه فيهم، ومَذاهب طَبقته في قَدِيمهم وحديثهم[4]. فقال: الشعراء[5] أكثرُ من

---

(١) بالأصل: «وأرجوا».

(٢) من هنا فقط تبتدىء النسخة الأندلسية.

(٣) بالنسخة الأندلسية: «في ذكر أهل النظام، ومنازلهم في الجاهلية والإسلام».

(٤) هذه الجملة مفقودة من النسخة الأندلسية.

(٥) بالنسخة الأندلسية: «عدد الشعراء».

الإحصاء، وأشعارُهم أبعدُ من شُقة الأستقصاء. فقلت: لا أُعْنتُك[١] بأكثر من المشهورين، ولا أُذاكرُك إلاّ في المذكورين[٢]؛ مثل الضِلّيل، والقتيل؛ ولَبيد، وعَبيد، والنوابغ والعُشي[٣]، والأسود بن يَعْفر وصَخر الغَي[٤]؛ وابن الصمّة دُرَيْد، والراعي عُبَيْد، وزَيد الخَيْل، وعامر بن الطُّفيل، والفَرَزْدق وجرير، وجميل بن معمّر وكُثَيِّر، وابن جَنْدَل وابن مُقْبل، وجَرْوَل والأخْطَل؛ وحَسَّان في هِجائه[٥] ومَدحه، وغَيْلان في مَيّته وصَيْدحه؛ والهُذَلي بن ذُؤَيب[٦]، وسُحَيْم ونُصَيْب؛ وابن حِلّزة الوائليّ، وابن الرِّقاع العامليّ، وعنترة العَبْسيّ، وزُهَيْر المُزِّي[٧]، وشعراء فَزارة، ومُفلقي بني زُرارة، وشعراء تَغْلب، ويَثْرب. وأمثال هذا النمط الأوسط كالرمّاح، والطِرمّاح؛ والطّثَريّ والدُّمَيْنيّ، والكُمَيْت الأسدي؛ وحُميد الهلالي، وبَشّار العُقيلي؛ وابن أبي حَفْصَة الأموي، ووَالبَة الأسديّ، وابن جَبلة الحلمي، وأبي نُواس الحَكَميّ؛ وصريع الأنصاري، ودِعْبل الخُزاعي؛ وابن جَهْم القُرشي، وحَبيب الطائي، والوليد البُحتري، وابن المُعتزّ العباسي؛ وعليّ بن العبّاس الرومي،

---

(١) كذا بالنسخة التونسية. وفي الأصل: «أعتبك».

(٢) من «ولا أذاكرك» إلى «المذكورين» مفقود من النسخة الأندلسية.

(٣) كذا بالنسخة الأندلسية. وفي الأصل: «العشوء».

(٤) بالنسخة الأندلسية: «ومن سواه من العمى».

(٥) بالنسخة الأندلسية: «في أهاجيه».

(٦) بالنسخة التونسية: «وأبو ذؤيب الهذلي».

(٧) بالنسخة التونسية: «المزنى»، وهو أيضاً صحيح.

وابن رُغبان الحمصي، ومن الطبقة المُتأخرة في الزمان، المتقدِّمة في الإحسان، كأبي فِراس بن حَمْدان، والمتنبّي بن عَبدان؛ وابن جدار المِصري، وابن الأحنف الحنفي، وكُشاجَم الفارسي، والصّنوبريّ الحلّي؛ ونَصر الخُبزرزّي[1]، وابن عبد ربه القُرطبي؛ وابن هانيء الأندلسي، وعلي بن العباس الإيادي[2] التُونسي، والقَسْطلي.

قال أبو الريّان: لقد سَمّيْتَ مشاهير، وأبقيت الكثير قلت: بلى، ولكن ما عندك فيمن ذكرت؟ قال: أما الضِلّيلُ[3] مؤسّسُ الأساس، وبنيانه[4] عليه الناس؛ كانوا يقولون «أسيلة الخد»، حتى قال «أسيلةَ مجرى الدمع»، وكانوا يقولون «تامة القامة» و«طويلة القامة» و«جَيْدآء» و«تامّة العنق» وأشباه هذا حتى قال: «بعيدة مهوى القرْط[5]». وكانوا يقولون في الفرس السابق: «يلحق الغزال والظليم» وشبهه، حتى قال: «قَيْد

---

(١) بالنسخة التونسية: «الخبزري».

(٢) بالنسخة الأندلسية: «الإياذي»، وعلي بن عباس الإيادي هذا من فحول الشعراء التونسيين خدم بشعره الأمراء العبيديين أواسط القرن الرابع وكان معاصراً لأبي القاسم محمد بن هانيء الأندلسي.

(٣) الضليل: هو امرؤ القيس بن حجر الكندي حامل لواء شعراء الجاهلية.

(٤) بالنسخة التونسية: «بنيانة».

(٥) لم نعثر في شعر امرىء القيس على هذه الجملة ولا التي قبلها. وأول من استعمل لفظ «القرط» في نظمه هو عمر بن أبي ربيعة، حيث يقول:

بعيدة مهوى القِرط أما لنوفل ... أبوها وأما عبد شمس وهاشم

كما أن الأخطل هو أول من وصف الخد بالسهولة وذلك في قوله:

أسيلة مجرى الدمع أما وشاحها ... فجار وأما الحجل منها فما يجري

الأوابد[1] ». ومثل هذا له كثير. ولم يكن قبله مَن فطِن لهذه الإشارات والاستعارات غيره. فٱمتثلوه بعده. وكانت الأشعار قبلُ سواذج، فبقيت هذه جُدُداً وتلك نواهج؛ وكل شعربعدُ ،ما خلاها فغير رائق النّسج، وإن كان النهج.

وأما طَرَفَةُ فلو طال عمرُه، لطال شعره، وعلا ذكره. ولقد خُصّ بأوفر نَصيب من الشعر، على أيسر نصيبٍ من العمر؛ فملأ أرجاءَ ذلك النصيب بصُنوفٍ من الحِكمة، وأوصافٍ[2] من علوّ الهمة والطبع، معلم حاذق، وجَواد سابق.

وأما الشيخ أبو عَقيل فشعرُه ينطق بلسان الجَزالة، عن جَنان الأصالة، فلا تَسمع له إلاّ كلاماً فصيحاً، ومعنى مُبيناً صريحاً؛ وإن كان شيخَ الوَقار، والشرفِ والفَخار؛ لبادئاتٍ في شعره وهي دلائلُه، قَبلَ أن يعْلم قائلُه.

وأما العَبْسيّ[3] فمُجيدٌ في أشعاره، ولا كمعلّقته فقد انفرد بها ٱنفرادَ سُهَيْل، وغَبر في وجوه الخَيل؛ وجَمع فيها بين الحلاوة والجَزالة، ورقّة الغَزل وغلْظة البسالة؛ وأطال وأستطال، وأَمن السآمة والكَلال.

---

(١) إشارة إلى قول امرئ القيس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهذا البيت يعد من ابتداعات امرئ القيس ومخترعاته.

(٢) من هنا يبتدىء النقص بالنسخة التونسية. فأتممنا ما ضاع من النسخة الأندلسية.

(٣) العبسي: هو عنترة بن شداد.

وأما زُهير فأي زُهير، بين لَهوات زُهير؛ حِكَمُ فارس، ومَقامات الفوارس؛ ومَواعظ الزهّاد، ومُعتبرات العبّاد؛ ومَدْحٌ يكْسب الفخار، ويَبقى بقاءَ الأعصار؛ ومُعاتبات مَرّة تَحْسُن، ومَرّة تَخْشن؛ وتارة تكون هَجْواً، وطَوراً تكاد تَعود شكراً.

وأما ابن حِلّزة [١] فسَهْلُ الحُزون، قام خطيباً بالمَوزون؛ والعادة أن يُسهل شَرح الشعر بالنثر، وهذا أسهل بالوَعر؛ وذلك مثل قوله:

أبْرَموا أمرَهم عِشاءً فلمّا ... أصبحوا أصبحتْ لهم ضَوْضاء [٢]
مِن مُنادٍ ومن مُجيبٍ ومن تَصْـ ... ـهالِ خَيْلٍ خلالَ ذاك رُغاء

فلو أجتمع كلُّ خطيبٍ ناثر، من أوَّل وآخر؛ يصفون سَفْراً نهضوا بالأسحار، وعَسْكراً تُنادىَ بالنهوض إلى طلب الثار: ما زادوا على هذا إن لم يَنقصوا منه، ولم يقصروا عنه. وسائر قصيدته في هذا السلك شكايةٌ وطلاب نَصَفة، وعِتابٌ في عزَّة وأنَفَة؛ وهو من شعراء وائل، وأحَدُ أسنّة هاتيك القَبائل.

وأما ابنُ كلثوم فصاحب واحدةٍ بلا زيادة؛ أنطقه بها عزُّ الظَّفر، وهَزَّه فيها جِنّ الأشر؛ فقعقعتْ رُعوده في أرجائها،

(١) هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن زيد اليشكري البكري، أحد شعراء الجاهلية المجيدين.

(٢) البيتان من معلقته المشهورة التي مطلعها:

آذنتنا ببَيْنها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

يقال إنه ارتجلها بين يدي عمرو بن هند في شيء كان بين بكر وتغلب بعد اصلاح، وكان ينشده من وراء ستور، فأمر عمرو برفع الستور عنه استحساناً لها، وتروي «أجمعوا» بدل «أبرموا».

وجَعْجعت رَحاهُ في أثنائها ؛ وجعلتها تَغْلِبُ قِبلتها التي تُصلّي إليها ، ومِلّتها التي تعتمد عليها ؛ فلم يتركوا إعادتها ، ولا خلعوا عبادتها ؛ إلا بعد قول القائل:

ألهي بنـي تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرمُةٍ   قصيدةٌ قالها عمرُو بنُ كلثوم(١)

على أنها من القصائد المحقَّقات ، وإحدى المُعلّقات .

أما النابغة زِياد، فأشعاره الجِياد ، لم تخرج عن نار جَوانحه حتى تناهى نُضْجُها ،ولا قُطِعت من مِنوال خَواطره حتى تكاثف نَسْجُها ، لم تُهلهلها مَيعة الشباب ، ولا وَهاء الأسباب ، ولا لُؤم الاكتساب . فشعره وسائط سلوك ، وتيجان ملوك .

وأما النابغة الجعديّ ، فنقيُّ الكلام ، شاعر الجاهلية والإسلام ؛ وآستحسن شعرَه أفصحُ الناطقين ، ودعا له أصدقُ الصادقين ؛ وكان شاعراً في الافتخار والثناء ، قصيرَ الباع لشرفه عن تناول الهجاء ؛ وكان مغلوباً فيه في الجاهلية ، وطريدَ ليلى الأخيليّة .

وأما العُشى بأجمعهم فكلهم شاعر ، ولا كَميمون بن قيس شاعرِ المدح والهجاءِ ، واليأس والرخاء ؛ والتصرُّف في الفنون ، والسعي في السّهول والحزون؛ نفق مَدحُه بنات المحلّق وكان في فقر ابن

---

(١) قائل البيت مجهول ، وأتبعه ابن قتيبة بيت آخر وهو:

يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لشعر غير مسئوم

المُذلّق[1] وأبكى هجوهُ علقمة[2]، كما تبكي الأمَة.

وأما الأسود بن يَعْفُر فأشعرُ الناس إذا ندب دولةً زالت، أو بكى حالةً حالت؛ أو وصف ربعاً خلا بعد عمران، أو داراً درست بعد سُكّان؛ فإذا سَلكَ هذا السبيلَ، فهو من حَشو هذا القبيل؛ كعمرو وزيد، وسعد وسُعيد.

وأما حَسّان، فقد أجتث بواكر غسَّان؛ ثم جاء الإسلام. وانكشف الإظلام؛ فحاجج عن الدِّين، وناضل عن خاتم النبيّين؛ فشَعر وزاد، وحسن وأجاد؛ إلا أن الفضل في ذلك لرَبِّ العالمين، وتسديد الروح الأمين.

وأما دُرَيْد بن الصِّمّة، فصِمّة صمم، وشاعِرُ جشم، وغَزِل عرم؛ وأول من تغَزَّل في رثاء، وهَزل في حُزن وبكاء؛ فقال في مَعْبد أخيه، قصيدته المشهورة يرثيه:

أرثّ جديد الحبل من أمّ مَعْبد[3]

وهي من شاجيات النوائح، وباقيات المَدائح.

---

(١) ابن المذلق، من عبد شمس، لم يكن يجد (قوت) ولا أبوه ولا أجداده، فقيل: أفلس من ابن المذلق.

(٢) هو علقمة بن علاثة، هجاه أعشى ميمون دفاعا عن عامر بن الطفيل بأبيات مطلعها:

علقم ما أنت إلى عامر النا　　فض الأوتـــار والواتر

(٣) قال ابن الكلبي: لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة (عمدة- باب الرثاء):

أرثّ جديد الحبل من أم معبد　　بعافية قد اخلفت كل موعد

وأما الراعي عُبيد فجُبل على وصف الإبل فصار بالرعْي يُعرف، ونسي ماله من الشرف.

وأما زَيْدُ الخَيْلِ فخطيبُ سِجاعة، وفارس شَجاعة؛ مشغول بذلك، عما سِواه من المَسالك.

وأما عامر بن الطُّفيل فشاعرهم في الفَخار، وفي حِمَاية الجار؛ وأوصفهم لكريمة، وأبعثهم لحميد شيمة.

وأما ابن مُقْبل فقديمٌ شِعْرُه، وصليبٌ نَجْره؛ ومُغْلي مدحه، ومُعلي قدْحه.

وأما جَرْول فخبيثٌ هجاؤه، شريفٌ ثناؤه؛ رفع شعره من الثَرَى، وحطّ من الثريا، وأعاد بلطافة فكره، ومتانةِ شعره؛ قبيح الألقاب، فخراً يَبْقى على الأحقاب، ويُتوارث في الأعقاب.

وأما أبو ذُؤيبٌ فشديد، أمير الشعر حكيمهُ، شغله فيه التجريبُ حديثُه وقديمه؛ وله المَرْثية النقيّة السَّبك، المتينة الحبْك؛ بكى فيها بَنيه السبعة، ووصف الحمار فطوَّل، وهي التي أولها:

أمِنَ المَنونِ وَرَيْبِها تتوجّع (١)

وأما الأخطلُ فسَعدٌ من سُعود بني مروان، صفت لهم مرآة فِكره، وظَفروا بالبديع من شعره؛ وكان باقعةَ(٢) من حاجاه، وصاعقةَ من هاجاه.

---

(١) وبقية البيت: «والدهر ليس بمعتب من يجزع».

(٢) الباقعة: الداهية والذكي العارف لا يفوته شيء ولا يدهن.

وأما الدارميُّ هَمّام[1] فجوهرُ كلامه، وأغراض سهامه، إذا افتخر بُملك آبن حَنْظلة، وبدارم في شَرَف المنزلة. وأطولُ ما يكون مدىً إذا تطاول اختيارُ جرير عليه بقَليله على كثيره، وبصَغيره على كبيره؛ فإنه يُصادمه حينئذ ببَحر مادّ، ويُقاومه بسيفٍ حادّ.

وأما ابن الخَطَفى[2] فزُهدٌ في غَزل، وحَجر في جَدل؛ يسبح أولاً في ماء عَذب، ويطمح آخراً في صخر صلب؛ كلْبُ مُنابحةٍ، وكبشُ مُناطحة؛ لا تَفُلّ غربَ لسانه مطاولة الكِفاح، ولا تُدمى هامتَه مداومةُ النِّطَاح؛ جارَى السوابقَ بِمطيَّة، وفاخر غالب بعطيَّة؛ وبلّغته بلاغته إلى المساواة، وحملته جُرأته على المجاراة، والناس فيهما فريقان، وبينهما عند قوم فَرْقان.

وأما القَيْسان[3] وطبقتهما، فطبقةُ عَشَقةٍ وتَوَقَة، استحوذتِ الصبابةُ على أفكارهم، واستفرغتْ دواعي الحب مَعاني أشعارهم؛ فكلهم مَشغولٌ بهوَاه، لا يتعدّاه إلى سواه.

وأما كُثَيِّر، فحسن النَّسيب فصيحُه، نظيف العتاب مليحُه،

---

(١) الدارمي همام، هو الفرزدق الشاعر المشهور.

(٢) ابن الخطفى: هو جرير بن عطية بن الخطفي التميمي الشاعر المشهور، المتوفى سنة ١١٠. وكانت بين جرير هذا والفرزدق مهاجاة ونقائض متينة بتأليف خاص.

(٣) أولهما: قيس بن الملوح مزاحم بن قيس العامري المشهور بمجنون ليلى، وأشعاره فيها متداولة بين الناس. وثاني القيسين هو قيس بن ذريح الكناني، رضيع الحسن بن علي بن أبي طالب توفي في حدود السبعين للهجرة. وغالب أشعاره في معشوقته لبنى بنت الحباب.

شجيّ الأغتراب قريحه؛ جامعٌ إلى ذلك رقائقَ الظُّرفاء، وجَزالةَ مدح الخلفاء.

وأما الكُمَيْت والرَمّاح، ونُصيْب والطِرِمّاح، فشعراء مُعاصرة، ومناقضات ومُفاخرة؛ فنُصيْب أمدح القوم، والطِرِمّاح أهجاهم؛ والرمَّاح أنسبُهم نسيباً، والكمَيْت أشبّهم تَشْبيباً.

وأما بّشار بن بُرْد، فأوّل المُحْدَثين، وآخر المخضرمين؛ وممن لَحِق الدولتين. عاشقٌ سَمع، وشاعر جَمع؛ وشعرُه ينفق عند ربّات الحجال، وعند فحول الرجال؛ فهو يلين حتى يَستطعف، ويقوى حتى يَستنكف؛ وقد طال عمرُه، وكَثُر شعرُه، وطما بحرُه، ونقب في البلادِ ذكره.

وأما ابنُ أبي حَفْصة(1) فمن شعراء الدولتين، وممن حظيَ بالنّعْمَتين، ووصل الى الغِنَى بالصّلَتين، وكان دَرِب المِقْوَل، ذَرِب المِقْوَل؛ والِدَ شُعرآء ومُنجِبَ فُصحاء.

وأما أبو نُواس، فأول الناس في خَرْم القِياس، وذلك أنه ترك السيرة الأولى، ونكَّب عن الطريقة المثلى؛ وجعل الجدّ هزلا، والصعبَ سَهْلا؛ فَهلْهَلَ المسرّد، وبَلبل المُنَضَّد، وخَلخل المُنَجَّد؛ وترك الدعائم، وبنى على الطامي والعائم؛ وصادف الأفهام قد نكلتْ. وأسباب العَربيّة قد تخلخلت وانحلّت؛ والفصاحات

(1) هو أبو السمط مروان بن أبي حفصة سليان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد، من الشعراء الجيدين والفحول المتقدمين، ولد سنة ١٠٥ وتوفي عام ١٨١ ببغداد وله نوادر كثيرة.

الصحيحة قد سُئمت ومُلّت؛ فمال الناس الى ما عَرفوه، وعَلقت نفوسُهم بما ألفوه. فتهادَوْا شعرَه، وأغلوا سِعْره؛ وشُغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه. وكان ساعده أقوى، وسراجُه أضوى، لكنه عَرض الأنفق، وأهدى الأوفق؛ وخالف فشُهر وعُرف، وأغرب فذُكر واستُظرف. والعوامُّ تختارُ هذه الأعلاق، وأسواقُهم أوسعُ الأسواق؛ فَشِعْرُ أبي نواس، نافق عند هذه الأجناس، كاسدٌ عند أنقد الناس. وقد فَطِنَ إلى ٱستضعافه، وخاف من ٱستخفافه؛ فاستدرّ بَفصيح طُروده، طرفا حدِّ اللسان وحدوده. وهو محدود في كثرة التظاهر، على من غَضَّ منه بالحق الظاهر، ليس إلا لخفّة رُوح المُجون، وسهولة الكلام الضعيف المَلْحُون؛ على جُمهور العوام، لا على خواصّ الأنام.

وأما صَرِيع(١) فكلامُه مُرَصَّع، ونظامه مُصنّع، وجُملةُ شعره صحيحةُ الأصول، مُصنَّعة الفصول، قليلة الفضول.

---

(١) صريع الغواني، لقب لشاعرين، الأول القطامي، واسمه عمير بن شيم ابن أخت الأخطل، سمي بذلك لقوله:

صريــــع غوانٍ راقهُنّ ورقنــه   لدن شب حتى شاب سود الذوائب

والثاني وهو الذي قصده ابن شرف هنا هو مسلم بن الوليد الأنصاري من شعراء الدولة العباسية؛ لقّبه الرشيد بصريع الغواني لقوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا   وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

ومولد مسلم بالكوفة، ووفاته سنة ٢٠٨ هجرية. وهو فيما زعموا اول من قال الشعر المعروف بالبديع.

وأما العباس بن الأحنف فَمُعتزلٌ بهواه، وبمعزلٍ عما سواه؛ دفع نفسه عن المدح والهجاء، ووضعها بين يدي هَواه من النّساء؛ قد رَقق الشغفُ كلامَه، وثقفت قوةُ الطبع نظامَه؛ فله رِقّةُ العشّاق، وجَوْدة الحذّاق.

وأما دِعْبل، فمدّ يدَ مُقبِل؛ اليوم مَدْح، وغداً قَدْح؛ يُجيد في الطريقتين، ويسيء في الخليقتين؛ وله أشعار في العصبية. وكان شاعر علماء، وعالم شعراء.

وأما عليّ بن الجَهْم، فرشيق الفهم، راشق السهم: استوصل بشعره الشرفاء، ونادم الخلفاء؛ وله في الغزل الرُّصافِيّة، وفي العتاب الداليَّة؛ ولو لم يكن له سواهما، لكان أشعَر الناس بهما.

وأما الطائي حبيب، فَمُتكلّف إلا أنه يُصيب، ومُتْعِبٌ، لكن له من الراحة نصيب، وشُغله المطابقة والتجنيس، وحبذا ذلك أو بَئْس؛ جَزْل المعاني، مرصوص المَباني؛ ومدحه ورثاؤه، لا غزله وهِجَاؤه؛ طرفا نقيض، وخطب سماءٍ وحضيض؛ وفي شعره علمٌ جمّ من النّسب، وجملة وافرة من أيام العرب؛ وطارت له أمثال، وحُفظت له أقوال؛ وديوانه مقروء، وشعره متلو.

قال ابن بسام: أما صفته هذه لأبي تمام فنَصَفَة لم يَثْن عِطْفها حَمِيّة، ولا تعلّقت بذيلها عصبيّة، حتى لو سَمِعها حبيبٌ لاتخذها قِبلة، واعتمدها مِلّة؛ فما لام مَن أدّب وإن أوْجَع، ولا سَبّ من صَدَق وإن أقْذع.

وأما البحتريّ فلَفْظه ماءٌ ثجّاج، ودُرّ رَجْراج، ومعناه سِراج

وَهّاج، على أهدى مِنْهاج؛ يَسبقه شِعْره، إلى ما يَجيش به صَدْره؛ يُسْرَ مُراد، ولينَ قياد؛ إن شَرِبْته أرواك، وإن قَدحته أورَاك؛ طَبْعٌ لا تكلّف يُعيبه، ولا العِناد يَثنيه؛ لا يُملّ كثيرُه ولا يُستكلف غزيره، ولم يَهْف أيامَ الحُلُم، ولم يَصف زَمن الهرم.

وأما ابن المعتّز فملكُ النّظام، كما مَلك الأنام؛ له التَّشبيهات المثليَّة، والاَستعارات الشَّكلية؛ والإشارات السِّحرية، والعبارات المجرية؛ والتصاريف الصُّوفية، والطرائق الفُنونية؛ والإفتخارات الملوكيّة، والهِمّات العُلْويّة، والغزل الرائق، والعتاب الشائق؛ والوصف الحَسن الفائق:

وخـيرُ الشّعر أكرمُـه رجـالاً   وشرُّ الشعر مـا قال العَبيدُ(١)

وأما ابن الرومي(٢) فشجرةُ الإختراع، وثمرة الإبتداع؛ وله في الهجاء، ما ليس له في الإطراء؛ فتح فيه أبواباً، ووصل منه أسباباً، وخلع منه أثواباً، وطوّق فيه رقاباً، يَبْقين أعماراً وأحقاباً؛ يطول عليها حسابُه، ويُمْحِقُ بها ثوابه؛ ولقد كان واسعَ العَطَن، لطيف الفِطَن، إلا أنَّ الغالب عليه ضعفُ المَريرة، وقوةُ المِرّة.

وأما كُشاجَم فحكيمٌ شاعر، وكاتبٌ ماهر؛ له في التَّشبيهات غرائب، وفي التأليفات عَجائب، يُجيد الوصف ويُحققه، ويسبك المعنى فيرقِّقه ويروِّقه.

---

(١) البيت للفرزدق هجا به نصيبا، وقد يروى: «أشرفه رجالا» عوض «أكرمه رجالا».

(٢) هنا ينتهي النقص الذي بالنسخة التونسية.

وأما الصّنوبريّ ففصيح الكلام غريبُه، مليح التَّشبيه عجيبُه؛ مُستعملٌ لشواذِّ القوافي، يَغسل كُدرتها بمياه فَهْمه الصَّوافي؛ فتجلُو وتدِقّ، وتعذُب وترِقّ[١]؛ وهو وَحيد[٢] جنْسه في صِفة الأزهار، وأنواع الأنوار. وكان في بعض أشعاره يتخالَع، وفي بعضها يَتشاجع؛ وقد مَدح وهجا، ونَثر وشجا[٣]؛ وأعجبَ شعرُه وأطرب، وشَرّق وغرّب؛ ومدح من أهل إفريقية أميرَ الزاب، جعفرَ بن عليّ[٤] مُنفق سُوق[٥] الآداب؛ فوَصله بألف دِينار، بَعثها إليه مع ثِقات التجّار[٦].

وأما الخُبْزرزّي[٧] فخليعُ الشعر ماجنُه، رائق اللّفظ بائنُه؛ كثيرةٌ محاسنُه، صحيحةٌ أصولُه ومعادنه؛ رائقة البزّة، مائلة إلى العِزّة؛ تُسلّيه عن الحب الخِيانة، ويَروقه الوفاء والصِّيانة؛ وله على

---

(١) بالنسخة التونسية: «فيجل ويدق ويعذب ويرق».
(٢) بالنسخة التونسية: «جيد جنسه».
(٣) بالنسخة الأندلسية: «سر» بدل «نثر».
(٤) هو أبو علي جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان أمير الزاب من أعمال أفريقية ومؤسس مدينة المسيلة بالمغرب، وقد حاربه الأمير بلكين الصنهاجي صاحب القيروان واستظهر عليه، ففر جعفر إلى الأندلس وبها قتل سنة ٣٦٤هـ. ولأبي القاسم محمد بن هانىء الشاعر الأندلسي في جعفر المذكور مدائح فائقة تراجع في ديوانه.
(٥) بالنسخة التونسية: «سلع» عوض «سوق».
(٦) من «بعثها إلى التجار» مفقود بالنسخة الأندلسية.
(٧) الخبز رزي، ويروى أيضاً: الخبز أرزي، وهو أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن ميمون الشاعر البصري المتوفي سنة ٣١٠.

خُشونةِ خَلْقه، وصُعوبة خُلقه؛ اختراعاتٌ لطيفة، وابتداعات ظَريفة[1]؛ في ألفاظ كَثيفة. وفُصول قليلة الفضول نظيفة؛ حتى إنّ بعض كُبراء الشعراء اهتدم أشياءَ مِن مبانيه، واهتضم طَرَفا[2] من معانيه؛ وهو من مُعاصريه، فقلَّ مَن فَطِن لمراميه.

وأما أبو فِراس بن حَمدان، ففارسُ هذا المَيدان؛ إن شئتَ ضرباً وطعَناً، أو لفَظاً ومَعنى؛ مَلك زماناً، ومُلِك أواناً. وكان أشعرَ الناس في المملكة، وأشعرُهم في ذُلّ الملكة[3]. وله الفخريات التي لا تُعارَض، والأسْريات التي تُناقض[4].

وأما المُتنبّي فقد شُغلت به الألسن، وسهِرت في أشعاره العُيونُ الأعيُن؛ وكثر الناسخُ لشعره، والآخذ لذكره، والغائص في بَحره؛ والمُفتش في قَعره، عن جُمانه[5] ودرّه؛ وقد طال فيه الخُلْف، وكثر عنه الكشف. وله شيعة تغلو[6] في مَدحة، وعليه خوارجُ تَتماَيا في جَرْحه. والذي أقول: إن له حسنات وسيئات، وحسناتُه أكثر عدداً، وأقوى مدداً؛ وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة؛ وعلمه فسيح، ومَيْزُه صحيح؛ يروم فيقدّر، ويدري ما يورد ويُصدر.

(١) بالنسخة الأندلسية: «طريفة».
(٢) بالنسخة الأندلسية: «تطرفا» عوض «طرفا».
(٣) بالنسخة الأندلسية: «الملك» عوض «الملكة».
(٤) بالنسخة الأندلسية: «تناهض».
(٥) بالنسخة الأندلسية: «حماته» بدل «جمانه».
(٦) بالنسختين: «تعلو».

قال أبو الريّان[1]: هذا ما عندي من شعراء المشرق، وقد سميّتَ لي من مُتأخري شعراء المغرب مَن لعمري لا يَبعد عن مُعاصِرهم، ولا يُقصِّر عن سابقهم.

فأما ابنُ عبد ربّه القُرطبي، وإنْ بَعُدَتْ عنك ديارُه[2]، فقد صاقبتنا أشعارُه. وقفنا على أشعار صَبوته الأنيقة، وتكفيرات توبته الصَّدوقة؛ ومدائحه المَرْوانية، ومَطاعنه في العبّاسية. وهو في كل ذلك فارس مُمارس، وطاعن مُداعِس؛ واطّلعنا في شعره على علم واسع، ومادّة فهم مضيء ناصع؛ ومن تلك الجواهر نظم عقده، وتَركه لمن يتجمَّل به بعده.

وأما ابنُ هانيء محمد الأندلسي ولادةً، القَيرواني وفادةً وإفادة؛ فرعديّ الكلام، سرديّ النظام؛ مَتين[3] المباني، غيرَ مكين المثاني؛ تجفو بعَطنها عن الأوهام، حتى تكون كنُقطة النظام؛ إلا أنه إذا ظهرت معانيه، في جَزالة مَبانيه؛ رمى عن مَنجنيق، يؤثِّر في النّيق؛ وله غَزَلٌ قفري، لا عُذْري؛ لا يَقْنع فيه بالطَّيف، ولا يَشفع فيه[4] بِغير السَّيف؛ وقد نوّه به ملك الزَّاب، وعَظَّم شأنه بأجزل الثواب؛ وكان سيفَ دولته في إعلاء مَنزلته؛ من رجل يستعين على صلاح دُنياه، بفسادِ أُخراه، لرداءة عقله، ورقة دِينه، وضَعف

(١) من «قال أبو الريان» إلى «فأما عبد ربه» مفقود من النسخة الأندلسية.
(٢) بالنسخة التونسية: «وإن بعدت عنا ذكر».
(٣) من «متين» إلى «كنقطة النظام» مفقود من النسخة الأندلسية.
(٤) بالنسخة الأندلسية: «يشبع» بدل «يشفع».

يَقينه. ولو عَقل لم تَضق عليه[1] معاني الشعر، حتى يَستعين عليها بالكفر.

وأما القَسْطلي[2] فشاعرٌ ماهر؛ عالمٌ بما يقول، تشهد له العقول، بأنه المُؤخَّر بالعَصر، المُقدَّم في الشعر؛ حاذقٌ[3] بوَضع الكلام في مَواضعه؛ لا سيّما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة، وشكا ما داهاه في أيام المحنة. وبالجملة فهو أشعر أهل مَغربه، في أبعد الزمان وأقربه.

وأما عليّ التونسي فشعرُه المَوردُ العَذْب، ولفظه اللؤلؤ الرّطْب، وهو بُحتريّ الغَرب؛ يصف الحَمام، فيروق الأنام؛ ويُشبِّب، فيُعشّق ويُحبِّب؛ ويمدح، فيمنَح أكثَر ما يُمنح.

هذا ما عندي في المتقدِّمين والمتأخرين، على احتقار المُعاصر، واستصغار المُجارر، فحاش الله من الأوصاف، بقلة الإنصاف؛ للبعيد والقريب، والعدوّ والحبيب.

قلت: يا أبا الريّان[4]، أكْثر الله مثلك في الإخوان، ووقاك محذور الزمان، ومُرور الحَدثان؛ فلقد سبُكت فهما، وحُشيت علما[5].

☆ ☆ ☆

(١) بالنسخة التونسية: «عنه» بدل «عليه».
(٢) القسطلي: هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي الأديب المطبوع المتوفي سنة ٤٢١هـ. والقسطلي: نسبة إلى قسطيلية: إحدى الولايات بجزيرة الأندلس.
(٣) بالنسخة الأندلسية: «بوقع» بدل «بوضع».
(٤) من قوله: «كثر الله» إلى «محذور الزمان» مفقود من النسخة الأندلسية.
(٥) هنا تنتهي النسخة الأندلسية وفي آخرها ما نصه: «نجزت المقامة بأسرها والحمد =

قال محمد: قلت لأبي الريَّان في مجلس، عُقيب هذا المجلس: يا أبا الريان، لقد رأيتُ لك نقداً مُصيباً، ومَرْمى عَجيباً، ولقد أرغبُ في أن أنال منه نصيباً.

قال: النقدُ هِبة الموالد وفيه زيادة طارفٍ إلى تالد؛ ولقد رأيتُ عُلماء بالشِّعر ورُواةً له ليس لهم نَفاذ في نَقْده، ولا جَودة فَهمْ في رديّة وجَيِّدة؛ وكثيرٌ ممن لا علم له يَفطن إلى غوامضه، وإلى مُستقيمه ومُتناقضه.

قلت: أنا شديدُ الرغبة إلى فضلك، في أن تُفهمني من مَيْزِكَ وعَقلك؛ ما أستهدي بِسرَاجه، على مُستقيم منهاجه؛ فأقف مِنْ سرائره على بعض ما وقفت، وأعرف من مفاخره ومعانيه جزءً مما عَرفت.

قال: نعم: أوّل ما عليه تعتمد؛ وإياه تعتقد، أن لا تَستعجل بٱستحسانٍ ولا باستقباح، ولا باستيراد ولا باستملاح، حتى تُنْعِم[1] النظر، وتَستخدمَ الفِكر. وأعلم أنَّ العجلة في كُل شيءٍ مَوْطيء زَلُوق، ومركب زَهُوق؛ فإنّ من الشعر ما يملأ لفظُه المسامع، ويردّ على السامع منه فقاقع؛ فلا يَرُعْك شَمَاخة مَبناه، وانظر إلى ما في سُكناه من معناه؛ فإن كان في البيت ساكن، فتلك المَحَاسن؛ وإن

= الله رب العالمين وصلواته على محمد خاتم النبيين وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وسلامه». ثم عقب ذلك بخط غير منقوط: «طالعته في موفى سنة خمس وخمسمائة». وعليه فتكون النسخة الموجودة الآن باسبانيا «كتبت قريباً من عهد المؤلف»:

(١) تنعم: مثل تمعن.

كان خالياً، فأعدده جسماً بالياً. وكذلك إذا سمعتَ ألفاظاً مُستعملة، وكلمات مُبتذلة، فلا تَعجل بآستضعافها، حتى تَرَى ما في أضعافها؛ فكم من معنى عَجيب، في لفظ غريب، والمعاني هي الأرواح، والألفاظ هي الأشباح؛ فإن حَسُنا فذلك الحظ الممدوح، وإن قَبُح أحدُهما فلا يكن الرُّوح.

قال: وتحفَّظ عن شيئين: أحدُهما أن يَحملك إجلالُ القديم المذكور على العَجلة بآستحسان ما تَستمع له؛ والثاني أن يَحملك إصغارُك المعاصرَ المَشهود على التهاون بما أنشدت له؛ فإن ذلك جَوْرٌ في الأحكام، وظُلم مع الحُكام؛ حتى تُمَحِّص قولهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما. وهذا باب في آغتلافه آستصعاب، وفي صَرف العامَّة وبعض الخاصة عنه إتعاب. وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبّث القلوب بسيرة القَديم، ونفارها من المُحدث الجديد، فقال حاكياً لقولهم: (إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ). وقال: (لَنْ نَعْبُدَ إلاّ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا). وقد قلت أنت:

أُغْرِي الناسُ بآمتداح القديمِ ... وبـذمِّ الجديـدِ غَير ذَميمِ[1]
ليس إلا لأنهم حَسَدوا الحيّ ... ورَقُوا عـلى العِظـام الرَّميم

وقلتَ في هذا المعنى:

(١) أورد البيتين العلامة الشريشي في شرحه الكبير لمقامات الحريري. وروى: «أولع» بدل «أغرى» و«الحديث» بدل «الحديد» و«مالوا» عوض «رقوا»، وقوله «ذميم» أصلها «غير الذميم»، كما أنه أورد لفظ «ورقوا» في البيت الثاني، والأحسن عندي أن تقرأ «فرّقوا».

قُل لمن لا يَرى المُعاصر شَيئاً ويرى للأوائــل التقديما
إنَّ ذاك القديمَ كان جديداً وسَيغدو(١) هذا الجديدُ قديمَا

فلا يَرُعك أن تَجْرى على منهاج الحق، في جميع الخَلق؛ فيه قامت السموات والأرض، وبه أُحكِم الإبرام والنَّقض، وسأُمثّل لك في ذلك مثالاً، وأملأ أسماعك مقالاً، وفهمك عدلاً واعتدالا:

هذا امرؤ القيس، أقدمُ الشعراء عصراً، ومقدَّمُهم شعراً وذكراً؛ وقد اتسعت الأقوال في فَضله، اتساعاً لم يَفُز غيره؛ حتى إن العامة تظنّ بل تُوقن أنَّ جواد شعره لا يكبو(٢)، وحُسامَ نَظمه لا ينبو(٣)؛ وهيهات من البشر الكَمال، ومن الآدميّين الاستواء والاستدلال؛ يقول في قصيدته المقدَّمة، ومعلقته المفخمة:

ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْر عُنيزةٍ فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجِلي

فما كان أغناه عن الإقرار بهذا، وما أشك(٤) غفلتَه عما أدركه من الوَصمة به! وذلك أنّ فيه أعداداً كثيرة النَّقص والبَخْس؛ منها دخولُه مُتطفّلا على من كَره دخوله عليه، ومنها قول عُنيزة له «لك الويلات»؛ وهي قولة لا تُقال إلا لخسيس، ولا يُقابل بها رئيس. فإن احتجَّ مُحْتَجّ بأنها كانت أرأس منه. قيل له: لم يكن ذلك، لأن

(١) بالأصل: «سيغذوا».
(٢) بالأصل: «يكبوا».
(٣) بالأصل: «ينبوا».
(٤) كذا بالأصل، ولعله «أشد».

الرئيسة لا تركب بعيراً يَدْرج أو (يموت)[١] إذا ازداد عليه ركوب راكب، بل هو بعير فقير حقير. فإن احتُجّ له بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقة، قيل له وكيف يكون عاشقاً لها من يقول لها:

فمثلكِ حُبلى قد طَرقتُ ومُرْضِعاً فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

وإنما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته وٱطِّراح سواها، كالقيسَيْن في لَيلى ولُبْنى، وغَيلان بميَّة، وجميل ببُثَيْنة، وسواهم كثير. فلم يكن لها عاشقاً، بل كان فاسقاً[٢]. ثم أَهْجَنُ هُجنةٍ عليه، وأسخن سُخنةٍ لعينَيْه، إقرارُه بإتيان الحُبلى والمُرضِع؛ فأما الحُبلى فقد جَبل الله النفوس على الزُّهد في إتيانها، والإعراض عن شأنها؛ منها أن الحبَل علّة وأشبهُ العِلل بالاستسقاء، ومع الحَبل كُمود اللون، وسُوء الغذاء، وفَساد النَّكهة، وسُوء الخُلق، وغير ذلك. ولا يميل إلى هذا مَن له نفس سُوقي، دع نَفس مُلوكي. وأعجبُ من هذا أن البهائم كلها لا تنظر إلى ذوات الحَمل من أجناسها، ولا تَقرب منها حتى تَضَع أحمالها، أو تُفارق فُصلانها. ثم لم يَكفه أن يذكر الحُبلى حتى ٱفتخر بالمُرضع، وفيها من التلويث بأوضار رضيعها، ومن ٱهتزالها وٱشتغالها عن أحكام ٱغتسالها. وقد أخبر أن ذا التمائم المُحْوِل متعلّقٌ بها بقوله «فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ»، وأخبر أنها

(١) هنا أثر أكل أرضة أفسد اللفظ.

(٢) قال أبو فرج قدامة بن جعفر في نقد الشعر: «إني رأيت من يعيب أمرأ القيس في قوله: «فمثلك حبلى» (البيت)، ويذكر أن هذا معنى فاحش. وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا رداءته في ذاته». وهذا يعارض انتقاد ابن شرف على البيت المتقدم.

ظِئْرُ ولدها، لا ظِئر له ولا مُرضع سواها، فدلّ بذلك على أنها حقيرة وقيرة، ومثل هذه لا يصبو[1] إليها مَنْ له همة. وهذه الصفاتُ كلها تَستقذرها نفس الصُّعلوك والمملوك.

وقد قال أيضاً في مَوضع آخر من هذا الباب من قصيدة أخرى:

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سُمُوّ حَبابِ الماءِ حالاً على حال

فقالتْ لَحَاكَ[2] اللهُ إنّك فاضِحي ... ألستَ ترَى السُّمارَ والناسَ أحوالي[3]

حَلَفْتُ لها بالله حِلْفَةَ فاجرٍ ... لَنامُوا فما إن من حديث ولا صالي[4]

فأخبر هاهنا أنه هيّن القَدْرِ عند النساء وعند نفسه برضاه قولها «لحاك الله». فحَصل على «لحاك الله» من هذه و«لك الويلات» من تلك. فشهد على نفسه أنه مكروه ومطرود، غير مَرغوب في مواصلته، ولا محروص على معاشرته، ولا مَرضيّ بمُشاكَلته. ثم أخبر عن نَفسه أنه رَضي بالحِنث والفُجور، وهذه أخلاق لا خَلاق لها. ثم أقرّ في مكان آخر من شعره بما يكتمه الأحرار، ولا ينمّ بفَتحه إلا الأوضاع الأشرار، فقال:

ولمّـا دنوتُ تَسَدّيتُها ... فثَوْباً نسيتُ وثوباً أجُرّ

وأي فَخْرٍ في الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حُبه، وأين هذا من قول أبي يعقوب الخُرَيمي:

---

(١) بالأصل: «يصبو».

(٢) في بعض نسخ ديوان امرئ القيس: «سباك» عوض «لحاك».

(٣) بالأصل: «أحوال».

(٤) بالأصل: «صال».

ولا أسألُ الولدانَ عن وَجْهِ جارتي بعيداً ولا أرْعاه وهو قريبُ

وإنما سهّل عليه كلَّ هذا حرصُه على ما كان ممنوعاً منه، وذلك أنه كان مُبَغّضاً إلى النساء جداً، مفروكاً من ملك عصبتها لأسباب كثيرة ذُكرتْ. وكُلُّ مَنْ حَرص على نَيل شيءٍ فمُنع منه فعلاً، ادّعاه قَوْلاً. وله أشباهٌ فيما أتاه، يدّعون ما ادَّعاه؛ إفْكاً وَزُوراً، وكَذِباً وفجوراً. منهم الفرزدق، وهو القائل:

هما دلَّيـاني من ثمانـين قامـةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريش كاسرُه

فهذا أول كذبة، ولو قال: «من ثلاثين قامة» لكان كاذباً، لتقاصُرِ الأرشية عن ذلك. وقد قَرّعَه جَرير هذا في قوله:

تدلَّيتَ تَزْني مِن ثمانين قامةً وقَصّرْتَ عن باعِ العُلى والمَكارمِ

وكَان مُغرماً بالزنا مُدَّعياً فيه، وقد بُلي بموانع تَصدفه عنه، منها ما شُهر به من النميمة بمن ساعده، والادعاء على مَن باعده؛ ومنها دمامته، ومنها اشتهارُه، والمشهورُ يَصِلِ إلى شَهوة يتبعها ريبة، فكان يُكثر في شعره من ادعاء الزنا، واستدعاء النساء؛ وهُنّ أغلظُ عليه من كبد بعير، وأبغضُ فيه وأهجَى له من جَرير. وخُذ أطرف هؤلاء الأجناس، وهو سُحَيْم عَبْدُ بني الحَسْحاس؛ أُسَيْوِدٌ في شَملة، دنسة قملة؛ لا يواكِله الغَرْثان، ولا يُصَاليه الصَّرْد العريان، وهو مع ذلك يقول(١):

---

(١) هو سحيم عبد بني الحسحاس بن هند، شاعر مخضرم من الطبقة الأولى، توفي في نصف القرن الأول للهجرة، وكان أسود وكلامه فصيح إلا أنه قليل وغير مدون. وأحسن شعره قصيدته التي أولها: =

وأقبلن مِنْ أقصى البُيوت يَعِدْنني نواهـدَ لا يَعْرِفن خلقاً سوائياً
يَعِدْن مريضاً هنَّ هَيَّجن ما به ألا إنما بعضُ العوائد دائياً
تُوَسِّدني كفّـــاً وتحنو بمِعْصَم عـليَّ وتَرْمي رجلَها مِن ورائياً

فأنت تسمع هذا الأسود الشن وادعاءه، وتعلم أن الله لو أخلى الأرض، فلم يُبق رجلاً في الطول ولا في العَرض؛ لم يكن هذا الزَّنمة الزَّلة عند أدراك السّودان إلا كبمرة بعير، في مَفْرِ عِير؛ والممنوعُ من الشيء حريصٌ عليه، مُدَّعٍ فيه؛ والمعتدّ بما يهواه، كاتم له مُستغنٍ ببلوغ مُناه؛ ودليلٌ على ذلك أن المُرَقَّشَ الأكبر(١) كان من أجمل الرجال، وكانت للنساء فيه رَغْبةٌ، وشدةُ محبّة؛ وكان كثير الاجتماع بهنَّ، والوصول إليهن؛ وله في ذلك أخبارٌ مَرْويّة، ولم يكن في أشعاره صفة شيء من ذلك. فَحَسبك بذلك صحّة على ما قلناه.

فإن قال قائل: إنما وصفت عن امرىء القيس عيوباً من خُلُقه لا في شعره،

= عميرة دع إن ترحلت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

وهي التي اقتبس منها ابن شرف الأبيات المارة. وقد ورد منها في كتاب الأغاني (طبعة مصر ج ٢٠ ص ٥) القطعة الآتية لا غير:

تجمعن من شتى ثلاثاً وأربعاً وواحـدة حـتى كملن ثمانيـاً
وأقبلن من أقصى الخيام يعدنني بقيـة مـا أبقـين نصلا يمانيـاً
يعـدن مريضاً هن هيجن داءه ألا إنما بعض العوائـد دائياً

(١) المرقش الأكبر، واسمه عمرو، وقيل عوف بن سعد بن مالك، ينتهي نسبة لبكر بن وائل، شاعر جاهلي لقب بذلك لقوله:

الـــدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قـــلم

وهو أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته ابنة عمه أسماء. وكان المرقش يحسن الكتابة الحميرية، كما ورد في كتاب الشعراء لابن قتيبة.

قلنا: هل أراد بما وصف في شعره إلا الفَخر؟ فإن قال: لم يُرد ذلك وإنما أراد إظهار عَيبه. قلنا: فأحمقُ الناس إذاً هو، ولم يكن كذلك. وإن قال: نعم، الفخر. قلنا: فقد نَطق شعرُه بقدر ما أراد، وترجم[١] عنه قريضه بأقبح الأوصاف. فأيُّ خَلَلٍ من خلال الشعر أشدّ من الانعكاس والتناقض. وكُل ما يُخزي من الشعر فهو من أشدّ عُيوبه.

قال: ومن كَلام امرئ القيس المُخَلْخَلُ الأركان الضعيفُ الاستكهان، المتزلزل البنيان، قوله:

أَمَرْخٌ خيامُهُمُ أم عُشَرْ   أمِ القلبُ في إثْرِهم مُنْحَدِرْ
وشاقد بين الخليط الشُطُرْ[٢]   وممن[٣] أقام من الحيّ هِرّ
وهرٌّ تَصِيد قلوبُ الرجالِ   وأفلَتَ منها ابنُ عمرو حُجُرْ

فأنت تسمع هذا الكلام الذي لا يتناسب، ولا يتواصل ولا يتقارب، ولا يحصل منه معنى ولا فائدة، سوى أنَّ السامع يدري أنه يذكر فرقة من أحباب، لكنَّ ذلك عن ترجمة معجمة، مضطربة مُنقلبة. سأل عن الخيام: أمْرخٌ[٤] هي أم عُشَر[٥]؟ وليست الخيام

---

(١) في الأصل: «وتزجم وترجم» وظاهر أن صوابه ما أثبتنا.
(٢) رواية هذا الشطر في الديوان: «أم الظاعنون بها والشطر» وقد جاء عجزاً لا صدراً، وفي بعضها: «شاقد بين الخليط الشطر» بالمصراع الآتي: «أم الظاعنون بها في الشطر».
(٣) في الديوان: «وفي من»، ويروى: «أفي من».
(٤) المرخ (بالفتح): شجر سريع الورى يقتدح به، والمرخ (بالكسر): الشجر اللين الرقيق.
(٥) العشر: شجر فيه حراق لم يقتدح الناس أجود منه، ويحشى في المخاد، ويخرج =

مَرْخاً ولا عُشَراً، وإنما هما عودان(١). فإن أراد في مكان هذين الخيام، فقد نقض عمدة الكلام، لأن مرخه وعشره أتي بها نكرتَيْن فأشكل بذلك. وإنما يجوز لو جعلهما معرفة بالألف واللام، والوزن لا يساعده على ذلك، ثم قال:

* أم القلب في إثرهم مُنحدر *

وليس هذا السؤال من السؤال الأول في شيء إلا من بُعْدٍ بعيد، واحتيال شديد. وقال بعد هذا:

وشاقـذ بـين الخليـط الشطر ومن أقـــام من الحيّ هِرّ

فأتى بكثير كلام لا يُفيد إلا قليل معنى. وذلك القليل لا غريب ولا عجيب، وهو كُله ذكر فراق. ثم رجع إلى أن «هِرّ» فَقيمةٌ تصيد قلبه وقلب غيره، فأبطل بإقامتها كل ما قال من أخبار الفراق ونقضَه، وجعل بكاءه المتقدم لغير شيء. ثم قال:

* وأفلت منها ابنُ عمرو حجر *

فحسن عنده أن يخبر أن الناس قد صادت هِرّ قلوبَ جميعهم إلا

= من زهره وشعبه سكر وفيه مرارة. قال أبو حنيفة: «والعشر من العضاه، وهو من كبار الشجر وله صمغ حلو وهو عريض الورق صعدا في السماء». وفي الصحاح: «وثمرته نفاخة كنفاخة القتاد الأصفر» (أقرب الموارد).

(١) قال ابن رشيق: «كتاب العمدة باب التتبيع»: «ومن أعجب التتبع قول امرىء القيس: «أمرخ خيامهم» (البيت). يقول: انزلوا نجدا الذي من نباته المرخ أم الغور الذي من نباته العشر. وإن الأعراب يعملون خيامهم من نبات الأرض التي ينزلونها فإذا رحلوا تركوه واستأنفوا غيره من شجر البلد الذي ينزلون به». ولا أرى العرب تذكر ذلك كثيراً في أشعارها.

قلب حُجْر أبيه. وهذا من الأحاديث الركيكة، والأخبار التي ما بأحد حاجة إليها[1]. ومع هذا فقد أورد أصحاب الأخبار أن «هرّ» هذه كانت زوجة أبيه حُجْر، فانظر ما في جملة هذه الأبيات من الركاكات، وقلة الإفادات؛ فإنها لا تفيد قلامة، ولا تهز ثمامة. ولسنا ننكر بهذه العيوب ونزارتها، ما أقررنا له به من الفضائل ونَدارتها؛ وستجد من لا يصدق معاصرا، ولا يصدق على متقادم متأخرا؛ يبنى على ضعف أُسِّه، ويفديه من الجهل والعيب بنفسه. فإذا اعترضك مِن هذا النمط متعرض، فأعْرِضْ عنه ودَعْه على أخلاقه، مستمتعاً بخَلاقه، واتبع المسلك الذي أوضحته لك.

قال أبو الريّان: وفضلاء الشعراء كثير ولكلٍّ سَقطات، وسأَقفك على بعضها لعظيم المؤونة في الإحاطة بها ليس إلا، لأوضح بذكرها منهجاً من مناهج النقد، لا حرصاً على بُغض الفصحاء، ولا قصداً إلى تَهجين الصرحاء، وأية رغبة لنا في ذلك وهم جرثومة فروعنا، وبهم أفتخار جميعنا.

قال: زُهير بن أبي سُلمى على ما وَصفناه به ووصفه غيرُنا، من العلو والرفعة، في هذه الصنعة، من مُذهّبته الحِكَمية، ومعلّقته العلمية:

---

(١) جاء في عمدة ابن رشيق (باب الإستعارة): فمنها قول امرىء القيس: «وهر تصيد قلوب» البيت... فكأن لفظه «هر» وإستعارة الصيد معها مضحكة هجينة. ولو أن أباه حجراً من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف... لا على امرأ القيس أتى بالخطأ على جهته، ولكن للكلام قرائن تحسنه، كذكر الصيد في هذين البيتين.

رأيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب تُمِتْه ومن تُخطِئْ يُعمَّر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخَبط العشواء، على أننا لا نطالبه بحكم ديننا، لأنه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل فنقول: إنما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو[1]، وقد علم هو وعَلِم العالم، حتى البهائم، انَّ سهام المنايا لا تُخطيءُ شيئاً من الحيوان حتى يعمّها رَشْقها، فكيف يُوصف بخَبط العشواء رامٍ لا يَقصد غرضاً من الحيوان إلا أقصده حتى يستكْمل رَمياته، في جميع رمياته. وإنما أدخل الوهمَ على زهير موتُ قوم عبطةً وموت قوم هَرَماً، وظنّوا طول العمر إنما سببه إخطاء المنية، وسبب قصَره إصابتها. وهيهات الصواب من ظنّه! لم يؤخر الهرم إلا أنها قصدته فحين قصدته أصابته. ولو أن الرُّماة تهتدي كآهتدائها، لملأت أيديها بأقصى رجائها.

وقال زهير أيضاً في مُذهّبته:

ومَن لا يَذُدْ عن حَوضه بسلاحه يُهَدَّم ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَم

وقد تجاوز هذا الحق الباطل، وبني قولاً لا ينقضه جَريان العادة، وشهادة المُشاهدة؛ وذلك أن الظلم وعرةٌ مراكبُه، مذمومةٌ عواقبه، في جاهليته وإسلامنا. فحرّض في شعره عليه، وإن كان إنما أشار في شعره إلى أن الظالم يُرهب فلا يُظلم، فهذا قياس يَنْفسد، وأصل ليس يطرد، لكن يرهبه مَن هو أضعفُ منه، وربما آنتقم منه بالحيلة

(١) بالأصل: «ينجوا».

والمكيدة. وقد يَظلم الظالم مَن يغلبه فيكون ذلك سببَ هلاكه مع قباحة السِّمة بالظُّلم. والمثل إنما يُضرب بما لا يَنخرم، وقد كانت له مَندوحة واتساع في أن يقول: «يُهَدَّم، ومَن لا يَظلم الناسُ يُظْلِم» فهذا أصح وأسلم مِن مِن لا يَظلم ويُظلم.

قال أبو الريان: وقال زهير أيضاً، وهو من أطيب شعره وأملحه عند العامة، وكثير من الخاصة، فهاهنا تحفظ وتأمل، ولا يَهُلْكَ ذلك منهم، الحقُّ أبلج. قال:

تراه إذا ما جئتَه مُتَهلّلا كأنك تُعطيه الذي أنت سائلُه(١)

مدح بها شريفاً أيّ شريف، فجعل سرورَه بقاصده كسروره بمن يدفع شيئاً من عَرَض الدنيا إليه. وليس من صفات النّفوس العارفة السامية، والهمم الشريفة العالية، إظهار السرور إلى أن تُهلّل وجوهُهم وتُسرّ نفوسُهم بهبة الواهب، ولا شدَّة الأبتهاج بعطيّة المُعْطي، بل ذلك عندهم سقوط همة وصغر نفس. وكثير من ذوي النّفوس النَّفيسة، والأخلاق الرئيسية، لا يُظهر السرورَ متى رُزق مالاً عفواً بلا منّةِ مُنيل، ولا يد مُعطٍ مستطيل؛ لأنه عند نفسه أكبر منه، ولأنّ قدرَ المال يقصر عنه؛ فكيف يُمدَح ملك كبير كثير القدر، عظيم الفخر، بأنه يتهلل وجهه ويمتلىءُ سروراً قلبه، إذا أعطى سائله مالاً. هذا نقض البناء، ومحض الهجاء، والفضلاء يفخرون بضدِّ هذا، قال بعضهم:

---

(١) البيت من قصيدة طويلة مدح بها حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري وأولها:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرّي أفراس الصبا ورواحله

ولستُ بِمِفرَاح إذا الدهرُ سرَّني ... ولا جَزِع من صَرفه المتقلّب

وإنما غرَّ زهيراً وغرَّ المُستحسن بيته هذا ما جُبلوا عليه من حُب العطاء، وما جَرت به عاداتهم من الرغبة في الهِبات والاستجداء؛ وليس كُل الهمم تستحسن ذلك، ولا كل الطباع تسلك هذه المسالك.

قال أبو الريان: وقال زهير أيضاً يمدح سادةً من الناس فذمَّهم بأنواع الذم، وأكثرُ الناس على آستحسان ما قال، بل أظنّ كلهم على ذلك، وهو قوله:

على مُكثِريهم حقُّ من يَعْتريهمُ ... وعند المقلّين السماحةُ والبذْل(١)

فأول ما ذمَّهم به إخباره أن فيهم مُكثرين ومُقلّين. فلو كان مُكثروهم كُرماء لبذلوا لمقلّيهم الأموال، حتى يستووا في الحال، ويُشبهوا في الكرم والحال، الذين قال فيهم حسان:

المُلحقين فقيرَهم بغنيِّهم ... والمُشفقين على اليتيم المُرْمل(٢)

المُرْمِلُ: القليل المال، وأرمل الرجل: إذا قل زاده. وكما قال غيره:

الخالطينَ فقيرَهم بغنيِّهم ... حتى يعود فقيرُهم كالكافي

---

(١) البيت من القصيدة التي مدح بها سنان بن أبي حارثة المرى مطلعها:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

(٢) جاء هذا البيت في ديوان حسان بن ثابت (طبعة تونس سنة ١٢٨١ ص ٧٢) على الصورة التالية:

والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرمل

وكما قالت الْخِرنِق[١]:

الخالطـــينَ لُجينَهم بنُضارهم   وذوي الغِنـى منهم بذي الفَقْر

فهذا كُله، وأبيك، غايةُ المدح، النقيّ من القَدح. ثم آستمعْ ما في هذا البيت سوى هذا من الخَلل والزلل. قال:

على مُكثِريهم حقٌّ[٢] مَن يعتريهمُ   وعنـد المُقلّين السماحةُ والبذْلُ

ففي هذا القسم الأول عيوبٌ على المُكثرين منهم، منها أنهم ضيّعوا القريب كما قدّمنا، ورعَوْا حق الغريب، وصلةُ الرحم أولى ما بُديءَ به. ومن مكارم العرب حميتها لذوي أنسابها، وذبّها عن أحسابها؛ والأقرب فالأقرب، وما فضل عن ذلك فللأبعد. ثم أخبر أنَّ المُكثيرين ليس يسمحون بأكثر من الآستحقاق في قوله:

٭ على مُكْثريهم حقٌّ من يعتريهمُ ٭

ومن أعطى الحقّ فإنما أَنصف ولم يتفضّل بما وراء الإنصاف، والزيادة على الإنصاف أمدح. ثم أخبر في البيت أن المُقلّين على قدر قصور أيديهم أكرمُ طباعاً من مُكثريهم على قَدْرهم في قوله:

٭ وعند المقلّين السماحةُ والبذْل ٭

والبذْل مع الإقلال مدحٌ عظيم وإيثار، والسماحةُ إعطاء غيرُ اللازم، فمدح بشعره هذا من لا يَحظى منه بطائل، وذَمّ الذين

---

(١) هي الخرنق بنت بدر بن هفان، أخت طرفة بن العبد لأمه، وكانت شاعرة جاهلية جليلة توفيت قبل الإسلام بنحو سبعين سنة.

(٢) في عدة نسخ من ديوان زهير ورد لفظ «رزق» بدل «حق».

يرجو[1] منهم جزيلَ النائل؛ وهذا غايةُ الغلط في الاختيار، وفي ترتيب الأشعار. ولزُهير غيرُ هذا من السَّقطات لولا كُلفة الاستقصاء. هذا على آشتهاره بأنه أمدح الشعراء، وأجزل الوافدين على الأشراف والأمراء؛ وسيتعامى المُتعصّب له عن وضوح هذا البيان، وسيُنكر جميعَ هذا البرهان؛ ويجعل التَّفتيش عن غوامض الخطأ والصواب آستقصاء وظلماً، ومطالبة وهَضما، وزعم أن جميع الشعر لو طُلب هذه المطالبة لبَطل صحيحُه، وآنعجم فصيحُه، والباطلَ الذي زعم، والمَحال الذي به تكلم؛ فالسليم سليم، والكليم كَليم، وإنما سمع المِسكين أنَّ أملح الشعر ما قلّت عباراتُه، وفُهمت إشاراته؛ ولحت لُمَحُه، ومَلُحت مُلَحُه؛ ورُقّقت حقائقُه، وحُققت رقائقُه؛ وآستُغني فيه بلُمَحِهِ الدالّة، عن الدلائل المُتطاولة؛ وأمثال هذا الكلام، في آستعمال النظام. فتوهّم أن خَلل الشّعر وزلله وضعف أركانه، وتناقض بُنيانه، وآنقلاب لفظه لَغو، وآنعكاس مدحه عجو؛ إذا خلا ممّا قدّمنا من الأوصاف المُستحسنة، من لُمَح إشاراته، ومُلح عباراته، فعاملْ هذا الصنفَ، بعطفك عنهم للعطف، ورَفعك عليهم الأنف، وأعْرض عنهم بالفِكْر والذِّكر، كبراً وإن لم تكن من أهل الكبر.

وفيما أطلعتك عليه من شعر هذين الفَحلَيْن، والمُتقدمَيْن القديمَين، ما يُغني عن التفتيش على سَقطات سواهما، فقس على ما لم تَره بما ترى، وآعلم أن كلّ الصّيْد في جوف الفرا.

---

(١) بالأصل: «يرجوا».

قال أبو الريّان: ومن عيوب الشعر اللحنُ الذي لا تَسعه فُسحة العربية، كقول الفرزدق:

وعَضّ زمانٌ يأبن مروان لم يَدَعْ   من المال إلا مُسحتاً أو مجلفُ

فرفع «مجلفاً» وحقه النصب. وقد تحيَّل له بعض النحويين بكلام كالضَّريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع، وكقول جرير بن الخَطَفى:

ولو ولدتْ فُقيرةُ جروَ كَلبٍ   لسُبّ بذلك الجروِ الكلابَا

فنصب «الكلاب» بغير ناصب. وقد تحيّل أيضاً بعض النحويين على وجهٍ، الإقفاءُ أحسن منه، فاحذر هذا ومثله. وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر، فكيف بضيّق ضَنْك.

قال: ومما يُعاب به الشعر، ويستهجنه النقد، خشونةُ حروف الكلمة، كقول جرير:

وتقولُ بَوزَعُ قد دببتَ على العصا   هلاّ هزِئْتِ بغيرنا يا بَوْزَعُ[1]

وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها، وأجزلها وأفصحها، فثقُلت القصيدة كُلها بهذه اللفظة.

وللفرزدق أيضاً لفظات خشنةُ الحروف كهذه تجدها في شعره.

قال: ويكره النقادُ تعقيد الكلام في الشّعر وتقديم آخره وتأخير أوله، كقول الفرزدق:

(١) البيت من قصيدة في مدح بعض بني أمية. قيل لما وصل جرير في إنشاده إلى هذا البيت قال له الأمير الممدوح: أفسدتها ببوزع.

وما مثلـه في الناس إلاّ مملّكاً   أبو أمـه حيّ أبوه يُناسبه[1]

يمدح به ابراهيم بن هشام المخزومي، وهو خال هشام بن عبد الملك. فمعنى هذا الكلام أن إبراهيم بن هشام ما مثله في الناس حي إلاّ مملك. يعني هشاما أبا أمه، أي جَدّ هشام لأمه أبو إبراهيم هذا الممدوح، فهو خاله أخو أمه، فهو يشبهه في الناس لا غير، وهذا غاية التعقيد والتنكيد، وليس تحته شيءٌ سوى أنه شريف كاّبن أخته شريف.

قال أبو الريّان: ومن شرِّ عيوب الشعر كُلّها الكسر، لأنه يُخرجه عن نَعْته شعراً، وليس مما يقع لمن نعت بشاعر. فأما الإقواء، والإبطاء، والسّناد، والإكفاء[2]، والزِّحاف، وصرفُ ما لا ينصرف، فكل ذلك يُستعمل، إلا أن السالم من جميع ذلك أجمل وأفضل.

قال: ومن عيوبه المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها، مثل قول الكُميت:

☆ حتى تكامل فيها الدلُّ والشَّنبُ[3] ☆

---

(١) وفي رواية: «يقاربه» بدل «يناسبه». وقال صاحب كتاب الصناعتين: البيت في مدح هشام بن إسماعيل.

(٢) قال الخليل: الإقواء: أن يكون بعض القوافي مرفوعاً وبعضها منصوباً وبعضها مخفوضاً. والإكفاء: أن يكون بعض القوافي على حرف وبعضها على حرف آخر. والإيطاء: إعادة القافية من غير اختلاف المعنى. (كتاب خاص الخاص طبعة تونس ص ٥٩).

(٣) وبكتاب الصناعتين: ★ خود تكامل فيها الدل والشنب ★

وكما قال بعض المتأخرين في رثاء:

فإنّــــك غُيّبـــتَ في حُفرة ... تراكم فيهـــا نعـــيمٌ وحورُ

وإن كان النعيم والحور من مواهب أهل الجنة، فليس بينهما في النفوس تقارب. ولا لفظة «تراكم» مما يجمع بين «الحور» ولا «النعيم».

ومثله قول بعضهم:

والله لولا أن يقـــال تغيّرَا ... وصبا وإنْ كان التصابي أجدرَا

لأعـاد تُفّاح الخـدود بَنفسجاً ... لثمي وكافورَ الترائـب عنبرَا

فالتفاح ليس من جنس البنفسج، لأن التفاح ثمرة والبنفسج زهرة. وقد أجاد في جمعه بين الكافور والعنبر، لأنهما من قبيل واحد. ولو قال:

لأعـاد ورد الوَجنتين بنفسجاً ... لَثْمي وكافورَ الترائـب عنبرَا

لأجـاد الوصف، وأحسن الرصف، لكون الوَرد من قبيل البنفسج. فهذا النوع فافتقد، وهذا الشرع فاعتمد.

قـال أبو الريّان: ولُفضلاء المولّدين سقطات مُختلفات في أشعارهم، أذاكرك منها في أشياء، لتستدل بها على أغراضك، لا لطلب الزلاّت، ولا لاقتفاء العثرات: كان بشّار تتباين طبقات شعره، فيُصعد [صغيرَها] كبيرُها، ويهبط قليلها كثيرها. وكذلك كان حبيبُ بن أوس الطائي. فإذا سمعتَ جيّدهما، كذّبت أنّ رديّهما لهما؛ وإذا صحَّ عندك أنَّ ذلك الرديّ لهما، أقسمتَ أنَّ جيدهما لغيرهما.

قال: ومما يُعاب من الشِّعر الآفتتاحات الثقيلة. مثل قول حبيب أولَ قصيدة:

هُنَّ عوادي يوسفٍ وصواحبُه فعزماً فقدْماً أدرك الشأوَ طالبُه[1]

ومثل قول ديك الجنّ أولَ قصيدة:

كأنها يا كأنه[2] خللَ الخـلّة وقف الهلوك إذْ بغَمَا

فآبتدأ هو وحبيب بمُضمرات على غير مُظهرات قبلها، وهو رديء.

قال: ويُعاب أيضاً الافتتاحات المتطيّر بها، والكلامُ المضادّ للغرض، كآبتداءِ قصيدة أبي نُواس التي أنشدها الفضلَ بن يحيى بن خالد البرمكيّ يُهنئه ببُنيانه الدار الجديدة، فدخل إليه عند كمالها وقد جلس للهناء والدعاء، وعنده وجوهُ الناس، فأنشده:

أرَبعَ البِلى إنَّ الخُشوع لبادِي[3] عليك وإنّي لم أَخُنك ودادي

فتطيّر الفضلُ من ذلك ونكّس رأسه، وتَناظر الناسُ بعضُهم إلى بعض، ثم تمادى فختَم الشعر بقوله:

---

(١) قال أبو هلال العسكري «كتاب الصناعتين»: لما نظر أبو العميثل في قصيدة أبي تمام:

هن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك الثأر طالبه

استرذل ابتداءها فأسقط القصيدة كلها حتى صار إليه أبو تمام ووقفه على الإحسان منها فراجع عبدالله بن طاهر فأجازه.

(٢) روى ابن رشيق في العمدة: «ما كأنه» بدل «ياكأنه».

(٣) جاء في ديوان أبي نواس: «البلا» عوض «البلى» و«لباد» بدل «لبادى».

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فُقدتُمُ   بني بَرمك مِن رائحين وغادِي

فكَمل جهلُه، وتم خطؤه؛ وزاد القلوب المتوقّعة للخطوب سرعة توقْع، وأضاف للنفوس المتوَجعة بذكر الموت شدة توجُّع؛ وأراد أن يَمدح فهجا، ودخل ليسرّ فشجا.

قال: وقريب من هذا ما وقع للمتنبي في أول شعر أنشده كافورا:

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافياً   وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيَا

فهذا خطاب بالكاف بفتح ولا سيَّما في أول لُقيه، وفي ٱبتداءٍ واستعطاف ورقية. وفي هذا البيت غيرُ هذا من العيوب سنذكره بعد.

ووقع مثلُ هذا من قُبح الاستفتاح في عصرنا، وذلك أن بعض الشعراء أنشد بعض الأمراء في يوم المِهرجان فقال:

لا تَقُل بُشْرَى ولكن بُشْرَيَان   وجهُ من أهوى ووجه المِهْرَجان[1]

فأمر بإخراجه، وٱستطار بافتتاحه، وحَرمه إحسانه.

قال أبو الريّان: ولو كَان هذا الشاعر حاذقاً لكان إصلاح هذا الفساد أيسرَ الأشياء عليه، وذلك بأن يعكس البيت فيقول:

وجه من أهوى ووجه المِهرجان   أي بُشرى هي لا بل بُشريان

---

(١) ورد عجز البيت في كتاب الصناعتين هكذا: * غرة الداعي ووجه المهرجان * وقائل البيت أبو مقاتل، أنشده الداعي، فأوجعه الداعي ضرباً ثم قال: هلا قلت:
* إن تقل بشرى فعندي بشريان *

قال: ويقبُح جداً الإتيان بكلمة القافية مُعجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام، وإنما هي مفردة لحشو القافية، كقول بعضهم:

فَبُلِّغْتَ المنى برغم أعاديـ ـك وأبقاك سالماً ربُّ هود[1]

فأنت ترى غثاثة هذه القافية، والله تعالى ربُّ جميع الخلق وكل شيء، فَخَصَ هوداً عليه السلام وحده لضعف نقده وعجزه عن الإتيان بقافية تليق وتحسن.

قال: ويقبُح أيضاً الجفاءُ في النَّسيب على الحبيب والتضجُّر ببُعده، وغلظة العتاب على صده، كقول أبي نواس:

أجارة بيتينا أبوك غَيورُ ومَيْسورُ ما يُرجى لديك عَسيرُ[2]
فإن كنتِ لا خلاً ولا أنت زوجةٌ فلا بَرحت منّا عليك سُتور
وجاورتِ قوماً لا تَزَاورَ بينهم ولا قُربَ إلا أن يكون نُشور

فلم أسمع بأوحش من هذا النسيب، ولا أخشن من هذا التشبيب، وذلك قوله: إن لم تكوني لي زوجة ولا صديقة فلا برحت منا سُتور للتراب عليك، ولا كان جارك ما عشنا نحن إلا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون إلى يوم النشور. على أن كلامه

---

(١) قائل البيت أبو عدي القرشي ورواه قدامة (نقد الشعر ص ٨٩):
ووقيت الحتوف من وارث وا ل وأبقاك صالحاً رب هود

(٢) هذه الأبيات من قصيدة فريدة مدح بها أبو نواس الخصيب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادى أمير مصر. وقد يوجد بعض اختلافات في روايتها، منها البيت الثاني: «خلما» وهو الصديق أو الصاحب بدل «خلا» و«روحة» بدل «زوجة» و«دوني» عوض «منا»، وفي البيت الثالث: «وصل» بدل «قرب».

يشهد عليه بأنه شاكّ، وإنما المعروف في أهل الرقة والظَّرف، والمعهود من أهل الوفاء والعطف؛ أن يَفدوا أحبابَهم بالنفوس، من كل مكروه وبُوس؛ فأين ذهبت ولادته البَصرية، وآدابُه البغدادية؛ حتى آختارَ الغدر على الوفاء، وبلغت به طباعُه إلى أجفى الجفاء؟ فاعلم هذا وإياك أن تعمل به.

قال: ومن عيوب الشعر السرق. وهو كثير الأجناس، في شعر الناس. فمنها سرقة ألفاظ، ومنها سرقة معان؛ وسرقة المعاني أكثر لأنها أخفى من الألفاظ. ومنها سرقة المعنى كله، ومنها سرقة البعض، ومنها مسروق باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى، وهو أحسن المسروقات؛ ومنها مسروق بزيادة ألفاظ وقصور عن المعنى، وهو أقبحها؛ ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص. والفضل في ذلك للمسروق منه ولا شيء للسارق، كسرقة أبي نواس في هذه القصيدة التي ذكرنا معنى أبي الشيص بكماله. قال أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيثُ أنت فليس لي ... متأخّر عنــه ولا مُتقـدّمُ(١)

فسرقه الحسن بكماله فقال:

فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه ... ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ(٢)

فهذا هذا، على أنَّ بيت أبي الشيص أحلى وأطبع، ومع حلاوته جزالة. وقد ذُكر عن الحسن أنه قال: ما زلت أحسُد أبا الشيص على

(١) قصيدة أبي الشيص التي مطلعها هذا البيت تعد من أبلغ ما قيل في التَشْبيب.
(٢) ورد عجز البيت في نسخة خطية من ديوان أبي نواس على هذه الصورة:
★ ولكن يسير الجد حيث يسير ★

هذا البيت حتى أخذتُه منه. وسرقةُ المعاصر سقوطُ همة. وبهذه القصيدة يُناضل أصحابُ الحسن عنه ويُخاصمون خُصَماءه مقرِّين بأن ليس له أفضل منها، ولا لهم إلى سوى القصيدة مَعدِل عنها. فقس بفهمك، وأعمل فكرك، على ما وَصفناه من أبواب السرق ما وجدته في أشعار لم أذكرها، يظهر لك جميع ما وصفناه، ويبدو لك جميع ما رسمناه.

قال: ومما يقعُ في عيوب الشعر، ويغفُل الشاعر عنه، ويجوزه الأمر فيه، لصغر جرم العيب، وسلامة اللفظ الذي احتبى فيه، ثم يكون ذلك سبب غفلة النقاد أيضاً عنه مثل قول المتنبي:

* كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا *

فضع هذا الكلام على أنه إنما شكا داءه ووصفه بالعِظم فعاد شاكياً نفسه، وجعلها أعظم الداء، لأنه أراد كفى بدائك داءً فغلط، وقال: كفى بك داءً. فصار: كفى بالسلامة داء. فالسلامة هي الداء. يريد: طول البقاء سبب للفناء. وقال الله تعالى: (وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) فالله هو أعظم شهيد: فجعل المتنبي نفسَه أعظم الداءً، ولم يُرد إلا استعظام دائه. وإصلاح هذا الفساد، وبلوغه إلى المراد، أن يقول:

كَفى بالمنايا أن تكن أمانيَا وحسبُك داءً أن ترى الموتَ شافيَا

فيعود الداء المُستعظم كما أراد، وتزول خشونة ابتدائه، وشدّة

جفائه، إذ خاطب الممدوح بالكاف فجعله داءً عظيماً في أول كلمة سمعها منه.

وقد تأدَّب خواصُّ الناس وكثير من عوامهم في مثل هذا المكان، فهم يقولون عند مخاطبات بعضهم بعضاً بما يَخشن ذكره: قلتُ للأبعد، ويا كذا أو كذا للأبعد.

ومن عيوب هذا القسم أيضاً أن قائله قصد إلى سلطان جديد، وإلى مكان يحتاج فيه إلى التعظيم والتفخيم، وقد صدر عن ملك نوّه به، أعني سيف الدولة، وأغناه بعد فَقره، وشرّفه ورفعه، وأدنى موضعَه. فورد على كافور هذا في مرتبة شريفة، وخطة منيفة؛ فجعل بجهله يَصفه في أول بيت لقيه به أنه في حالة لا يرى منها المنيّة، أو يرى المنيَّة أعظمَ أمنية. وعلم كافور بذكائه ووصول أخبار الناس إليه أنه في حالةٍ خلاف ما قال، وأنه كفر النعمة من المُنعِم عليه، وأراه أن جميع ما عامله به من الجاه الواسع، والغنى القاطع، حقير لديه، صغير في عينيه. فعلم كافور في هذا الوقت أنه ممن لا تَزكو لديه الصنيعة وإن عَظُمتْ، ولا تكبر في عينيه المواهب وإن جَسمت؛ ولم يكن في خُلق كافور من الصبر على اتساع البَذْل، ولا من الرغبة في أهل الآداب والفضل، ما عند سيف الدولة من ذلك، فزَهد فيه بعد رَغبة، وعلَّله بالقليل، وشاوقه بالجزيل. ورأى المتنبي أن الأسْوَد ليس له في قلبه من الحب والقرب ما له عند سيف الدولة، فلم يُدل عليه، ولا كثر من التعتّب والعتاب ما يعطفه عليه؛ فأضاع وضاع، وكان يتوقع الإيقاع؛ ولكُفران النعم نقَم، ثم

نجّاه ركوب ظهر الهرَب، وأقبل يعترف لسيف الدولة بالذنوب.
وكان لحنُه وشعره شريفين، وعقله ودينُه ضعيفين. ومع ذلك فسقطاتُه كثيرة إلا أن محاسنه أكثر وأوفر، والمرء يعجز لا محالة. وكان يمل إلى تعقيد الكلام، ويعتمد على علمه بقُبحه، فيقول من ذلك ما يصف به ناقَته:

فتبيت تُسئد مُسئداً في نيّها إسْآدها في المَهمه الأنضاء

يقول في المدح:

أنّى يكون أبا البريّة آدم وأبوك والثّقلان أنت محمد

ويقول في بيت آخر من قصيدة أخرى يمدح بها، والبيت لا يتعلّق بشيء مما قبله فيما يظهر ولا فيما بعده بشيء:

كأنك ما جاودتَ من بان جودُه عليك ولا قاومتَ من لم تُقاوم

ومثلُ هذا كثير، وهذه الأجناس من أبيات وإن ظهرت معانيها بعد ٱستقصاء، وأطاعت غوامضُها بعد ٱستعصاء؛ فهي مذمومةُ السلك، وإن ٱطلعت منها على أجزل الإفادة، فكيف إذا حصلت منها على السلامة بلا زيادة. وكان أيضاً يَغفل عن إصلاح أشياءَ من كلامه على قرب ذلك الإصلاح من الفهم، مثل قوله يرثي أخت سيف الدولة:

يا أخت خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النسبِ

فجعل «يا أخت خير» و«بنت خير» كناية عن أشرف النسب، والكناية لا تكون إلا لعلل تتسع فيها التهم، لأن الكناية

ستر وتعمية، فما بال شرف النسب يورَّى عند تورية المَعايب، ويكنى عنه والتصريح به من المفاخر والمناقب. وقد غفل عن إصلاح هذا بلفظ فصيح، ومعنى صحيح؛ قد كاد يبرز من الجَنان، إلى طرف اللسان، وهو لو فطن إليه:

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أب   غنيً بهذا وذا عن أشرف النسب

قال أبو الريّان: وهذه الجملة التي أثبتُّ لك فيها ما دخل على الشعراء المُجيدين من التقصير والغفلة والغلط وغير ذلك، كافية ومُغنية عن إيراد سوى ذلك؛ وإن لقيتها بجَودة بحث وصحة قياس، ولم تحتج إلى كشف عيوب أشعار الناس.

ولعل قائلا يقول: مالَ على هؤلاء وترك سواهم لمَيْله على من بكت، ولتفضيله مَن عنه سكت. فقل لمن قال ذلك الأمر: على خلاف ما ظننتَ لم أذكر إلا الأفضل فالأفضل، والأشهر فالأشْهَر، إذ كانت أشعارهم هي المروية، فالحُجة بهم وعليهم هي القويّة؛ فقد نقلتُه على من مَيلي عليهم، إلى ميلي الحق إليهم.

قال أبو الريّان: فأما نقد المُستحسن فتمثيلُه لك يَعْظم ويتسع لكثرته، فلا يسعنا ايراده ولكن ما سلم من جميع ما أَوردناه فهو في حيّز السالم، ثم تتسع طبقاتُ الجَودة فيه، وأحسنُ منه ما اعتدل مبناه، وأَغرب معناه، وزاد في مَحمودات الشِّعر على سواه، ثم يمدح الأدْون فالأدون، بمقدار انحطاطه إلى حيِّز السلامة، ثم لا مدح ولا كرامة.

قال محمد: فقلت: لله درّك يا أبا الريّان، فما ألينَ جانبك، وما

أقربَ غائبك، وما ألحَ طالبك، وما أسعدَ صاحبك. فقال. أنجح الله مطالبك، وقضى مآربك، وصفّى من القذى مشار بك، وبثّ في الحواضر والبوادي مناقبك.

تمت المقامة المعروفة بسائل الانتقاد

بلطف الفهم والاقتصاد

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلاته على نبيه سيدنا محمد وآله وسلامه

موضوعات الرسالة

فهرس

الموضوع	الصفحة

الصفحة

الموضوع

الموضوع	الصفحة